زوايا

جريدة الثقافة الحيّة للشباب العربي ◇ خريف ٢٠٠٧ ▣ العدد السادس و السابع عشر

لبنان: ٢٠٠٠ ليرة
مصر: جنيهان
المغرب: ٥ دراهم
سورية: ٢٥ ليرة
الأردن: ٥٠٠ فلس
البحرين: ٥٠٠ فلس
الكويت: ٢٥٠ فلساً
الإمارات: ٥ دراهم
تونس: دينار واحد
الجزائر: ١٠٠ دينار
سائر الدول ما يعادل دولاراً أميركياً

عن هَوْل ما جرى...

جان – مارك نحّاس
Kohei Matsushima
علاء حليحل
رين محفوظ
عدنيّة شبلي
رندا شعث
مازن كرباج
منى برنس
رائد ياسين
حاتم إمام
علي بدر
زياد تركي
يوسف رخّا
فؤاد الخوري
بشير مفتي
سبهان آدم
نجوان درويش
مهيب البرغوثي
هاشم المدني
زكريا محمد
تيسير البطنيجي
نوال العلي
خليل صويلح
جيلبير الحاج
Iris Tenkink
داليا خميسي
لارا بلدي
عبّاس بيضون
عامر شوملي
رؤوف حاج يحيى
شرين دباح

بلا ضفاف

مانيفستو التعب والوقت الهارب

بعد أشهر من الصمت واعادات النظر والانتظار، تعود «زوايا» إلى قرائها، شركاء اللحظات النادرة، المسروقة من راهن قاتم لا يتّسع للحلم. تلك اللحظات نتقاسمها بدهشة، على غفلة من واقع ثقافي وفكري قاحل يضيق بالاختلاف، ويهمّش كل المغامرات الابداعيّة التي لا تنضوي في النسق المكرّس...

«زوايا» تتوجّه إلى أكثريّة نادرة، تجيد الاصغاء إلى الهمس الحفيف، وتمعن النظر في الهامش الخصب، مختبر المستقبل الذي يمور بالتجارب والاقتراحات والأشكال البديلة. أكثريّة معنويّة تنتمي إلى العصر وأسئلته، تعيد النظر بالقوالب والأشكال والقواعد السائدة، وتبقى متمسكة بالتربة الثقافيّة المحليّة اطاراً ومصبّاً، تراهن على اللغة العربيّة مادة أوليّة، منها ـ أساساً ـ تبدأ اعادة بناء الروح المتصدّعة.

قد يبدو هذا الكلام خطابياً، في حين انّه أقرب إلى مانيفستو التعب والوقت الهارب. قد يبدو ايديولوجياً، على رغم قطيعته الحادة مع كل أشكال الدوغمائيّة، والأحكام المعياريّة التي ترسّم حدود اليقين. قد يبدو هذا الكلام سياسيّاً، في حين أنّه يتصدّر مجلّة ثقافيّة وفنيّة، لا معنى لوجودها خارج دائرة النقد والتجريب. مجلّة لا تحتمل منطق الفيتو، لا تعترف بالمحرّمات الفكريّة، ولا تخاف النظر إلى الضفّة الأخرى.

«زوايا» تعود بعد انقطاع، لتبحث معكم عن تحديدات جديدة للكلمات القديمة... انطلاقاً من أن «الحريّة هي فهم الضرورة»، ومن أننا، أفراداً وجماعات، لم نذهب بعمليّة الحداد إلى آخرها، كما يقول وليد صادق في المشروع الذي حمله هذا الصيف إلى «بينالي البندقيّة» (فينيسيا). من جديد نكتشف تداخل «الابداعي» الذي يشغلنا هنا، بـ «السياسي» الذي يحدد اليوم أكثر من أي وقت مضى مفرداتنا وحياتنا وسعادتنا، حقوقنا المستباحة وهويتنا المركّبة وحريتنا الصعبة.

في «كلمات ما بعد الحرب» الفيلم الذي صوّره الموسيقي التونسي أنور براهم في بيروت، بعد عدوان تموز (يوليو) ٢٠٠٦، يسأل ربيع مروّة عن حقّه في تأجيل الأسئلة، أو بالأحرى تأجيل الاجابة عنها إلى وقت آخر. ويستنكر هذا الفنّان اللبناني المغاير، غياب الخيار الثالث عن الساحة الفكريّة، والنقاش السياسي الراهن في لبنان والمنطقة. خيار ثالث بين «التطرّف» و«الهمجيّة»، بين اليأس ومسبباته؟ اقتراح مغرٍ، ولعلّه مشروع «زوايا» بامتياز. يبقى أن لحظة المواجهة، اختزاليّة حكماً، لا تترك مجالاً للمواقف المركّبة. كيف (وأين؟) نجد مكاناً محايداً، بين المقاومين والغزاة؟ ها نحن نبحث معكم، عن ذلك الخيار المركّب، عن تلك اللحظة البديلة.

بيار أبي صعب

رأساً على عقب

من معرض نظّمته جمعيّة «أمم» في «زيكو هاوس»، بيروت كانون الأوّل (ديسمبر) ٢٠٠٦

حبر صيني على ورق وقماش، ٢٠٠٦، ١٢٥ X ١٠٠ سنتم

جان – مارك نحّاس

بنت جبيل – هيروشيما

日常的生活 或いは 日常的戦争

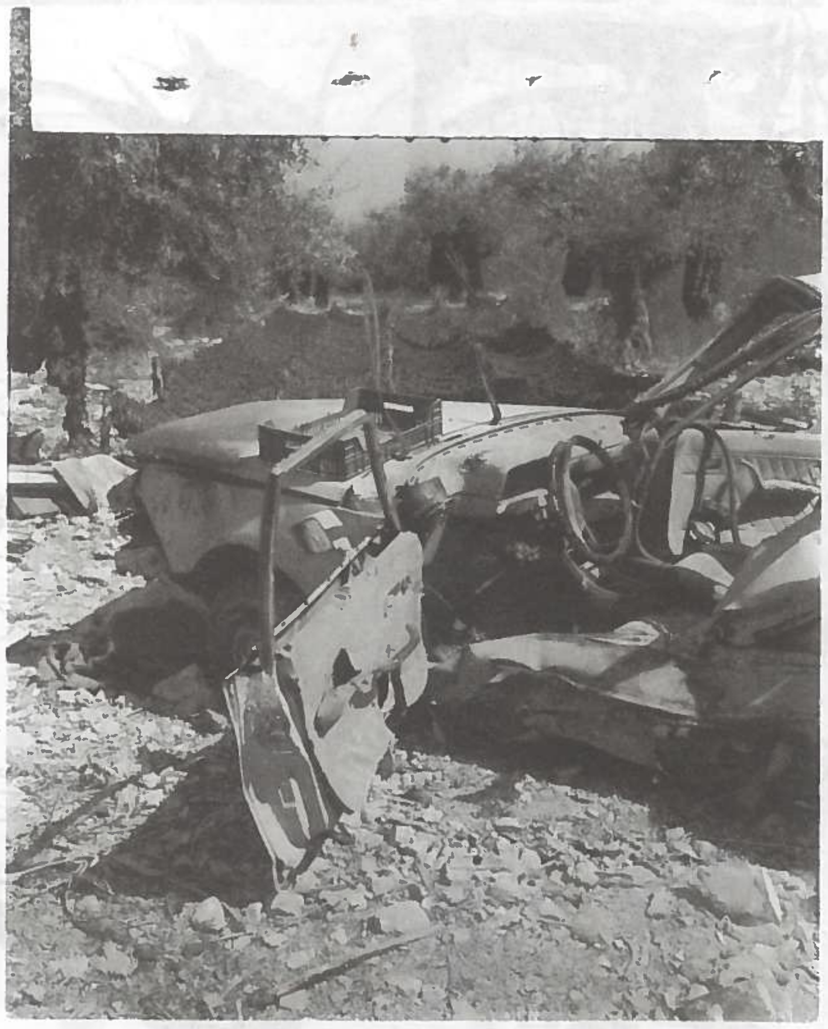

Kohei Matsushima

جنوب لبنان، أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٦

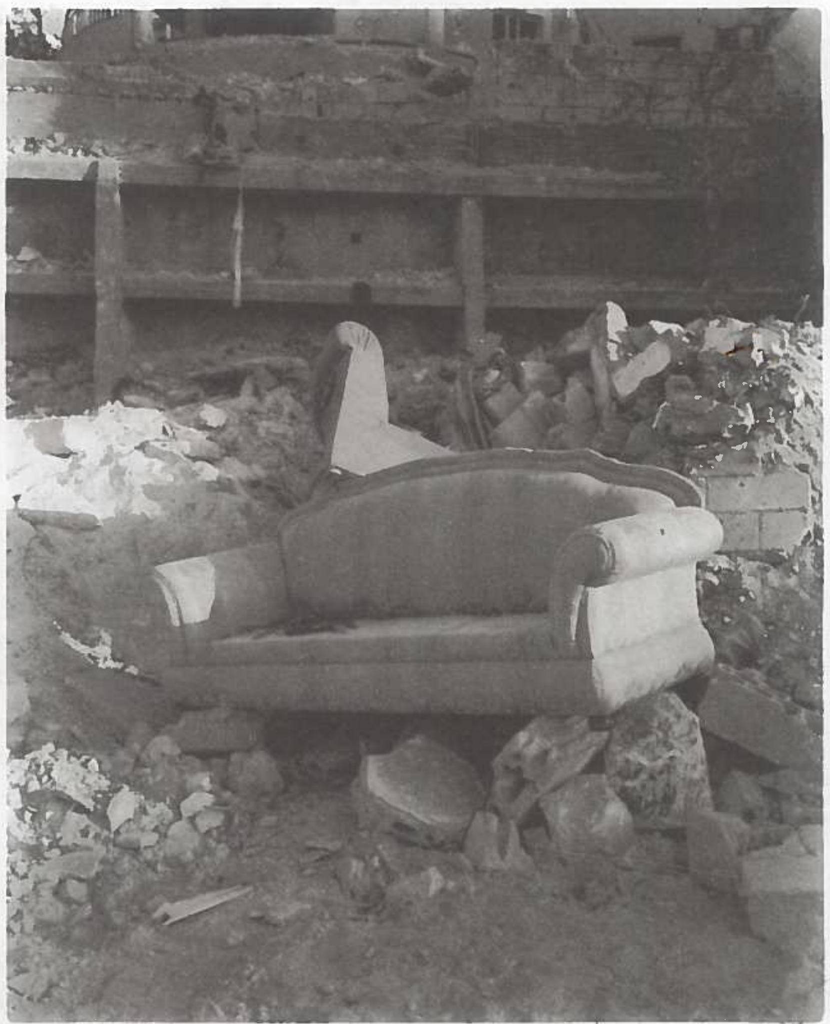

Sep. 2006 Ansar, South Lebanon

Kohei Matsushima كوهي ماتسوشيما

لا تسافروا في الحرب

علاء حليحل

(١)

◆ أن تحمل متاعَكَ القليل وحاجياتك، زادك الجسديّ والروحيّ، وتخرجَ من حيِّزك المُسيَّج بعمارة عصرية باطونية. أن تنزل الدرج أو أن تنزل بالمصعد، أن «تفحص» البريد عند المدخل وتشتم الفواتير كما تفعلُ دائماً، ثم تخرجَ إلى هواء هذا الشتاء المُمْحل البارد، وأن تشدَّ من إزار معطفكَ؛ وأن تسيرَ في الشارع المليء بالناس المتدافعين بتحرِّج على الرَّصيف، أن تمشي على مَهَل، تسحبُ أنفاساً من سيجارة اليوم الأولى، وأنَ تصل إلى محطة القطار؛ وتبتسم للحارسِ عند المدخل كي يقتنعِ بأنك عربيٌ جيدٌ رغمَ كل شيء. أن تُخرجَ هويّتك، كما تفعل دائماً إذ يطلبُها، رغمَ كلٍّ شيء. وأن تقفَ في الطابور الصغير أمامَ كُشك القهوة و«البوريكس» و«الكْرُواسان»، وتطلبَ «كافيه أو ليه» وكرواسان شوكولاته، رغم تنبيهاتها العنيدة بصَدد كرشك العنيدة. وأن تتصفَّحَ جريدة القطار المجّانية، وتجسَّ نبض شعب إسرائيل هذا الصباح في عناوين وصور سريعة. أن تتزاحم مع المتزاحمين عند مدخل إحدى المقطورات وتبدأ بمدٍّ رقبتكِ صوب الداخل كي تتأكَّدَ من خُلوّ مقاعد المقطورة التي تودُّ التوجُّهَ إليها. وأن تحتار، كما في كلّ مرة، ومن جديد: أتجلسُ في الطابق الأول من المقطورة أم في الطابق الثاني، وريثما تقرِّرُ تسبقكَ جحافلُ الجُلاّس الداهمين، فتضطر إلى الاندحاش إلى جانب جُندي يتكئُ على بندقيّته، ومقابلك جنديان يتكئان على بُندقيتيهما، وفي الكراسي المُحاذية لك جنودٌ يتكئُون على بنادِقهم، وفي الأمام والخلف جُنود يتكئون على بنادِقهم، ومن فوق ومن تحت جنود يتكئون على بنادقهم. وأنتَ تتكئ على حاسوبك النقال، وعلى أغنية شاردة في أذنيك وحدك، وتعمل بما أوتيت به من همّة صباحية حتى تستسلمَ للأمر الوحيد اللذيذ فيَ السفر، أي سفرِ: السرَحان.

(٢)

«رجلٌ مُنسَرِحٌ: مُتجرّد؛ وقيل: قليل الثياب، خفيف فيها، وهو الخارج من ثيابه. والتسريح: إرسالك رسولاً في حاجة. وسرّحتَ فلاناً إلى موضع كذا إذا أرسلته. وتسريح المرأة: تطليقها. وتسريح الشعر: إرساله قبل المشط. والمَسرح، بفتح الميم: المرعى الذي تسرح فيه الدواب للرعي. والسِّرحان للذئب أيضاً».

(٣)

فأنت حين تستسلمُ لرعشات التعب والنعاس في أطراف الجسد المُثقل بملابسه وحقائبه وتعب نهاراته ولياليه، تسمح لنفسك بأن تفقدَ السيطرة على أحاسيسك وأفكارك وهواجسك فتصير طيعاً كالمعجونة في يد خيالاتِك. تأخذُك «السَّرْحَة» إلى «لجّة» لا تعترفُ بأيةِ حُدودِ. يصيرُ العقلُ فوضًى عارمة من التداخلات والتقاطعات بعدما كان أرشيفًا مرتباً وناجعاً يُعينك على استلال أية فكرة أو ذكرى تُعينك على مشاقِّ التأليف (على جميع أشكاله: الأدب، الكذب، التحدث، البكاء، الضحك...). أنت حين تسرح تصبح إنسانًا حرّاً. لا واقعَ يشُدُّكَ إلى مهامه التي لا تنتهي، ولا وازعَ يسحبُك من يدك سحباً ويدقّ بقبضته على خزّان وعيكَ. الحرية التي في السَّرحانِ هي «شطحة» خلابة نادرة «تشطحُ» فلا تعود إلا كي تمتلئَ من جديد. ما الحياة لولا هذه الشطحات، ولولا السفر (المُتعِب والمُنهِك بالأساس، ولكن، ورغم ذلك...) الذي يمنح المرءَ شرعية الاسترخاء في مِقعد والاستسلام لأسمى فعل يمكن أن يفعله وهو سارحٌ أو سِرحانٌ، شاطحٌ أو شطحانٌ: التأمّل.

(٤)

(التَّأَمُّلُ: التَّثَبُّت. وتأَمَّلتُ الشيءَ أَي نظرتُ إِليه مُستثْبِتاً له. وتَأَمّل الرجلُ: تَثَبَّت في الأَمر والنظر.)

(٥)

لا تسافروا في الحرب. لا تتكئوا على أساطير الانتصار التي تملأ عناوين الصحف، وتدمي القلب النائم على وقع المقاومين. لا تصطبحوا أحداً يمكن أن يذكركم بهبوب القنابل وهبوب الرصاص وهبوب المضادات الإعلامية. لا تتكئوا على أفق يتدبل وفق سرعة القطار، ولا تتكئوا على ذاكرة لا تتذكر ما كان من المفترض أن تنساه في الصباح؛ فلا هي نسّاءة ولا هي ذكّارة. لا تتكئوا على شباك قطار ينهب الأرض نهباً، كما نهبها بُناته من قبل، ولا تتحيّنوا فرصة كي تبحثوا عن كرسيّ وسط زحام الكراهية. لا تسافروا في الحرب، لأنّ الحرب في السّفر توقظ قصص الجدّ عن سفر باتجاه واحد؛ فالحرب في السفر مثل السفر في الحرب: رحلة في اتجاه واحد. لا تتأمّلوا خيرًا ولا تتأمّلوا فكرة ولا تتأملوا خاطرة، فالطبول رقصة للبلادة وللهروب، والهروب مثل التأمّل، ولكن ينقصه الضجر.

(٦)

فإذا تأمّلتَ وطالَ تأملك، أخذتَ زمامَ سرحانكَ نحو السَّعي إلى الفهم والتثبّتِ، حيثُ أنَّ فعل التأمُّل مُرافقٌ للتثبُّتِ فلا مُفرِّق بينهما، وإذ بك في عِزٍّ تَرحالِك واضطرابِك الجسديّ والمكانيّ والزمانيّ، تسعى للتثبّت والتأمل، من حيث لا تدري. فإذا تحقق التأملُ والتثبتُ صرتَ قريباً من البيان والتبيينِ...

(٧)

«البين في كلام العرب جاء على وجهيْن: يكون البينُ الفرقة، ويكون الوصلَ، بأن يبين بيناً وبيْنونة، وهو من الأضداد. والمُباينة: المفارقة. وتباين القوم: تهاجروا. وغُراب البين: هو الأبقع. وقال أبو الغوث: غراب البين هو الأحمر المنقار والرجلين، فأما الأسود فإنه الحاتمُ لأنه يَحتِمُ بالفراق. البين: البعاد والفراق. وبانت المرأة عن الرجل، وهي بَائنٌ: انفصلت عنه بطلاق. وبانت هي، إذا تزوّجت، وكأنه من البئر البعيدة أي بعُدت عن بيت أبيها. والبَيان: ما بُيِّن به الشيء من الدلالة وغيرها. وبان الشيءُ بياناً: اتضح، فهو بيِّنٌ، والجمع أبيناء، وكذلك أبان الشيء فهو مُبين. واستبان الشيء: ظهر. واستبنته أنا: عرفته. وتبيّن الشيء: ظهر. والتِّبيان: مصدر. ويُقال استبنت الشيء إذا تأملته حتى تبيّن لك. قال الكسائي وغيره التبيين: التثبت في الأمر والتأني فيه. والبيان: الفصاحة واللَّسَن، وكلامٌ بيِّنٌ فصيح. والبيان: الإفصاح مع ذكاء. والبيِّن من الرجال: الفصيح».

(٨)

فأنتَ حينَ تسافرُ تضعُ حياتكَ في كفِّ السائقِ (سائق القطار وسائق الحافلة وسائق التاكسي وسائق السيارة)، وفي كفِّ جميع السائقين الآخرين الذين يتقاسمُون الطريق مع سائقكَ، أو تتقاطعُ طرُقُهُم مع طريقه. وتجدُ أنَّ عودتَك من السَّفر، أيِّ سفر، هي أعجوبةٌ بحدِّ ذاتِها؛ إذْ أنك نجوْت من الاصطدام بأكثر من عشرة آلاف سيارة أو حافلة أو تاكسي أو قطار. وأنتَ حتى لم تتبيَّن هذه الأعجوبةَ، فلا عجبَ إذًا أنك لا تصيرُ بيناً، لأنكَ لم تتعلم حكمة العيش في السفر.

(٩)

مَن منا تعلم حكمة السفر؟ مَن منا تحصَّن من أهواله؟ ■

نهر البارد

رين محفوظ

صورة من مجموعة «جدران بلا سقف»، التقطت خلال شهر آذار (مارس) ٢٠٠٥ في أحد أحياء مخيّم «نهر البارد» للاجئين الفلسطينيين، شمالي لبنان. الحيّ كان معروفاً بـ «حيّ المهجّرين»، إذ ضمّ حينذاك لاجئين من مخيّمات فلسطينيّة أخرى في لبنان (تل الزعتر، صبرا وشاتيلا، الضبيّه...)

عن بيت لم يعد منفى

سليم البيك

◆ – اوصفلي الطريق إلى بيتك يا مروان

– قبل أم بعد؟

– لم أفهم...

– قبل الخراب أم بعده؟

كان البيت في حي النهر، على شارع الكرمل، أو كان في حي كان يسمى بالنهر، على شارع كان يسمى بالكرمل، أو كان في ما كان يعرف بأنه حي، وسمي بالنهر، وعلى ما كان يعرف بأنه شارع، وسمي بالكرمل... في ما عرف بمخيم نهر البارد.

كان هنا بيت صغير، تتزاحم الأشجار في حرشه الأصغر من أصغر غرفه. كان كفلسطين مختصرة في بيت. كان ذاكرة حاولوا حرقها. مر الجنود من هنا، أحرقوه دون سواه، وتابعوا المسير.

لم تكن هنالك معارك في الحارة الشرقية من نهر البارد، حيث كان يسكن الروائي والتشكيلي والسياسي مروان عبد العال. لكن البيت احترق بعد سيطرة الجيش على المخيم. ذاكرة تمحى، حلم يتم اغتياله. يا مروان.. الرجال تبني البيوت، لا البيوت تبني الرجال.

– البيت احترق، الأحلام تبني الرجال، وأحلامنا لن تنكسر.

لا وجود لفتح الإسلام في تلك الحارة التي تعودت مساءاتها على موسيقى موتسارت، تتسلل من تحت عريشة العنب، عند مكتبة صغيرة، إلى نواحي حارة النهر. لكن الحرب اغتالت موسيقى ومكتبة تغلبتا على «فتح الإسلام». قبل انتهاء الحرب أحرقوا البيت. أحرقوا المنفى، الوطن الفلسطيني الموقت، وذاكرة أجيال الآتية.

ما الذي احترق يا مروان؟

مصبات قهوة كانت في ديوان جدي في الغابسية... زجاجة تحوي تراب الغابسية الممزوج بتراب البارد. صور لأجدادي في الغابسية. لوحاتي ومحاضراتي ومكتبة ضخمة وأشرطة فيديو. المكان لم يعد يشبهني. اليوم مات النهر. لم أكن أدرك يا صديقي المنفي أن القتل التسلسلي له مرادف آخر هو النفي التسلسلي. أن تنفى من مكان إلى مكان، من منفى قديم إلى منفى جديد، من منفى قسرى الى آخر طوعي. ولكن ما ليس فى الحسبان أبدا أن ينفي المكان نفسه. ■

صمت الصورة

عدنية شبلي

بيروت، آب (آغسطس) ٢٠٠٦، عدنان الحاج / رويترز

في زيارة لمعرض صور فوتوغرافية من أوروبا القرن العشرين، فجأة أعبر أمام صورة لشارع باريسي صغير. الصورة في الغالب مأخوذة في وقت متأخر من الليل، فالشارع فارغ تماماً بينما قلة من الأضواء تنبعث من نوافذ المباني المتراصة على جانبيه، وبشكل خاص من محلين تجاريين على يسار الشارع في يسار الصورة، حيث يسطع الضوء بقوة لكن بنعومة.

أنظر إلى بقية زائري المعرض وألحظ بأن أياً منهم لم يقف أمام هذه الصورة البسيطة والصامتة. هم ينتقلون إلى صور أخرى أشد صخباً كتلك التي يبدو فيها عشاق يتبادلون القبل أو زانيات أو جنود من الحرب العالمية الثانية أو موتى من جيتو وارسو. صور تحكي الكثير للعين عن ماضي أوروبا خلال القرن الماضي، المليء بالأحداث والتحولات السياسية والاجتماعية، بالألم والبؤس والوحدة، عدا صورة ذلك الشارع الباريسي الهادئة، المأخوذة من أسفل الشارع الذي ينطلق بدوره نحو الأعلى، مجتازاً الصورة عمودياً إلى حيث ينتهي فجأة ويتحول امتداده إلى درجات، يروح يخفيها ضباب ليل شتائي قبل أن يصل نهاية الإطار.

أقف أمام تلك الصورة، كما قلبي.

قبل نهاية الشارع، قبل أن يلتف يساراً ليختفي خلف المبنى الأخير في صف المباني على يسار الصورة، هناك، أو قبله بقليل، بصعوبة شديدة يبدو مدخل عمارة، إن دخله المرء سيختفي لا محالة من الصورة لكنه سيصعد خمس درجات ثم يهبط اثنتين ليجد نفسه في فناء صغير، في حال اجتازه سيدخل مبنىً آخر يتكون من ستة طوابق، عليه الآن أن يصعد إلى الطابق الثالث، حيث سيجد مباشرة إلى اليمين باب شقة معدنياً بنياً ذا قفلين.

الزوار في المعرض ما زالوا يمضون باتجاه الصور الأخرى، بينما قلبي ما زال يكاد يتوقف. صورة لشارع هادئ، لا أثر فيه لنفس حية. صورة لشارع باريسي صغير أوشكت ذات يوم أن أزهق نفسي فوقه.

كان حبيبي الذي لا يزال حبيبي لكنه لم يعد يطيقني، يسكن خلف ذلك الباب البني المعدني. اعتدنا أن نصعد هذا الشارع، هو خلفي لأنه كان يمقت المشي بسرعة مثلي. حين أصل مدخل العمارة كنت ألتفت إلى الوراء أنتظره دون أن أنظر إليه، إنما إلى عتبة مدخل البيت بلونها البارد، إلى أن يصل وندخل معاً بصمت، ثم نصعد إلى الشقة بصمت.

كان والداي، وأعتقد ما زالا، يتشاجران كثيراً. شجارهما يدوم لبضع دقائق على أقصى حد، بينما الصمت الذي يولده شجارهما ذاك يدوم لأيام.

كان الصمت بين أمي وأبي يثقل على وجودنا نحن أيضاً، أولادهم. كنا نصمت معهم، وبهذا الكون كله. كيف يولد الصمت ومتى؟ أسأل أمي مستفسرة، يا أمي، حين ولدت هل كنت صامتة؟

– كلا كنت تصرخين

– ألم أكن أنظر إليك بصمت؟

– كلا

– أرجوك يا أمي

– كلا

ولدت وأنا أصرخ إذاً، ولا أعلم كيف اهتديت إلى الصمت تدريجياً حتى بات مطبقاً، لا سبيل للخروج منه.

الصمت في ذلك الشارع الباريسي يأكلنا أنا وحبيبي. يأكل قدرتنا على أن نقول أكثر بأننا نحب. أريد أن أموت من فرط الصمت، لأنني لم أعد أعرف كيف أفتح فمي لأقول له بأنني أحبه، ثم أصير أريد أن أموت لأنني متعبة من جسمي الذي ما زال يحبه، لكنه لا يعرف كيف يقول ذلك.

ثم فجأة ألمحه، الألم يمشي مختالاً بكامل قواه في الصمت.

الزوار ما زالوا يجتازون باتجاه صور أخرى، بينما صورة ذلك الشارع لا تزال هادئة. إنهم لا يعرفون كل ما يخنق هدوءها. ربما بهدم ذلك المبنى كانوا سيعرفون، أو حرقه، وبعض من تلك التي تجاوره، أو تدمير الشارع كله على سبيل «الأضرار الملحقة»، أو محوه عن البسيطة. عندها كانوا ربما سيقفون أمام الصورة متعاطفين مع ضحايا ذلك الشارع الباريسي الصغير.

فجأة أتذكر ذلك المصور اللبناني الذي خلال الهجوم الإسرائيلي الأخير على لبنان، تلاعب بإحدى الصور التي التقطها، فجعل غيوم الدخان المتصاعدة من أحد المباني أشد سواداً حتى تتناسب مع إحساسه بمدى الدمار.

أكمل طريقي نحو الصور الأخرى، أفتح فمي بحرف الواو، أغلقه بحرف الميم، الفرق بين بالصوت والصمت. ◘

لندن شتاء ٢٠٠٧

أذكر يوماً كنتُ في غزّة

رندا شعت

غزّة، ذات مساء

(مئات المُسلّحين اقتحموا منزل الدكتور نبيل شعث ونهبوا جميع محتوياته قبل إحراقه)

كانت قد أظلمت الدنيا حين وصلتُ. وددت أن أصل مبكرة، لأرى المدينة في ضوء النهار. لكنني وقفت أتنشق الهواء في الظلام، متلمسة كل الروائح، البرتقال والليمون والبوملي، الياسمين والريحان وملح البحر المبخر. كانت أول زيارة إلى غزة، عودة لوطن لم يتسن لي زيارته منذ أن طردت عائلة أبي من يافا في ١٩٤٨. تحقق حلم. وحلم بفلسطين حرة، أصبح وشيكاً.

ليلة خروج جيش الاحتلال الإسرائيلي لأول مرة من غزة منذ ١٩٦٧، ولليالي عديدة زادت عن الشهر، بقي الناس في الشوارع حتى الفجر. حظر التجول أثناء سنوات الاحتلال كان يبدأ يومياً في السادسة مساء. أخرجوا كراسي البيوت إلى الشارع وجلسوا. كانوا يتبادلون الحلوى والتهاني. كنت أنا وأبي وأخي وزوجته وابنه الرضيع أول من وصل إلى غزة من عائلتي. أسبوع بعد دخول وحدات الشرطة الفلسطينية، وشهر قبل عودة ياسر عرفات إلى أرض الوطن بعد عشرين عاماً من الغياب. حكايات غربة لم تنته، تبادلناها مع الساهرين في الشارع.

أطفال غزة في الشوارع يهدون الورود لرجال الشرطة خلال النهار. الأهالي يبعثون لهم بالطعام، ويفتحون بيوتهم لاستقبال من لا مكان له بعد. احتفالات يومية بالعائدين إلى أرض الوطن.

زحفت الجماهير باتجاه البحر تعويضاً لحرمان سنوات. آلاف الخيم والمظلات الملونة انتصبت على طول الشاطئ، للحماية من الشمس وتغيير الملابس. أعلام فلسطين تزين كل أكشاك المقاهي الصغيرة التي انتشرت بين الخيام. طائرات ورقية لونت بألوان العلم، ظللت ما تبقى من السماء الصافية. الخيول أيضاً أخذت نصيبها وسبحت. استحيت أن أرتدي لباس البحر، واكتفيت بشرب الشاي والنظر إلى الأفق.

فرقة موسيقية مكونة من عشرة عازفين جلسوا على كراسي خشبية اصطفت بشكل نصف دائري، إلى جانب الباب الذي ترك مفتوحاً على مصراعيه. باب خشبي لدار قديمة، مبنية بالحجر القدسي الكبير، ذات شبابيك وأسقف عالية، وبلاط قديم مزخرف. سجاجيد ملونة فرشت احتفاءً، وان كانت الدنيا صيفاً لاذعاً. أصغر العازفين في الخامسة والستين. ارتدوا جميعاً بذلات سموكن لامعة، وقمصاناً بيضاء ناصعة، وياقات منشاة. البذلات قديمة، ضاقت وقصرت على أصحابها، واضح أنها لم تستخدم لسنوات، وانها نظفت ولمعت للمناسبة. كانوا يعزفون بحماسة شديدة، لم تكل طوال الليلة، أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب، وأناشيد وطنية. الابتسامة العريضة لم تفارق ثغر العازفين.

كانت دعوة لنا ولعائلات أخرى «عادت» إلى غزة. حفلة عشاء في بيت عائلة غزاوية أصيلة. جلبت لنفسي كرسياً وجلست بالقرب من الموسيقيين أسألهم. أين ومتى كانوا يتدربون؟ وأيام الانتفاضة التي تركت في كل عائلة شهيداً أو أسيراً هل غيبت الفرحة عن المدينة؟ حكوا لي أنه لم يتسن لهم إحياء حفلة منذ عشر سنوات، وأنهم كانوا يجتمعون في بيت أحدهم مرةً في الأسبوع ليعزفوا وحدهم وتبقى أصابعهم لينة، أملا في يوم كيومنا.

أرض فراغ وسط مباني سكنية عدة في حي صبرا القديم. تحيطها أشجار سرو رشيقة وطويلة. كل النوافذ المطلّة عليها مفتوحة على مصراعيها. يطل منها ومن الشرفات والأسطح، مئات من النساء والرجال والأطفال. يلوحون مرحبين. جماهير غفيرة في كل الشوارع المؤدية إلى قطعة الأرض، تتكاثف كلما اقتربنا منها. ساتر من القماش الأخضر يظلل الفضاء وطاولات طويلة ممتدة على الأرض، ومجهزة لوجبة تكفي المئات. حبال طويلة امتدت بين شبابيك العمارات المطلة، تحمل آلاف الأعلام الفلسطينية الصغيرة، والملصقات المطبوعة بصورة أبي. كانت هذه أرض جدي. اشتراها بأول راتب بعدما تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت، وعين مدرساً في صفد. عام ١٩٢٩ كان ثمنها خمسة جنيهات فلسطينية. حافظ عليها الأهالي طوال سنوات الاحتلال، بأن وضعوا عليها بيوتاً من الزنك حتى لا يصادرها جيش الاحتلال. أخيراً جاء اليوم لتسليمها إلى أصحابها، فقد عادوا إلى غزة. أقام عليها شيوخ القبيلة حفل غداء على شرف ممثليها أبي وأخي الأكبر. أما أنا فقد جئت كمصورة صحافية! كانت الحفلة للشيوخ من رجال العائلة.

بعد انتهاء العيد، عشرات ساهموا في تنظيف المكان من مواعين الفتة والكنافة. كان أبي وأخي قد قاما بمصافحة مئات المهنئين وتقبيلهم. تذكرت البذور التي كانت في جيبي. قررت دفنها بجانب شجرة السرو. حمّلني البذور مساعدي في المكتب في القاهرة، ووعدته بزرعها في أي مكان في أرض الوطن. لم يكن من المحظوظين مثلي، ولم تتح له الفرصة بالعودة، فالاتفاقية لم تشمل ثمانية مليون فلسطيني ما زالوا في الانتظار.

(بين ١٩٦٧ و١٩٩٤، هدم الاحتلال أكثر من ١٨ ألف منزل في غزة – بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٣، قتل الجيش الإسرائيلي ٢٥٢٧ فلسطينياً، واعتقل ٢٣٢٩٢، وجرف وقلع ٨٠٢٨٤٤ شجرة، ودمر وإلحق الضرر بـ٤١٨٦٥ منزلاً – آلاف الفلسطينيين محتجزون على الجانب المصري من معبر رفح بسبب إغلاق المعبر – إسرائيل تدمر مطار غزة بالأكمل بعد ثلاث سنوات فقط على إنشائه).

بعد طيران ساعة من مطار القاهرة حطت قدمي على أرض مطار غزة لحظة الغروب. كان توهج الشمس قد انكسر، ونسمات الهواء البحرية تداعب النخلات العالية على حدود أرض المطار. طائرة واحدة صغيرة يزينها العلم الفلسطيني صفت في فضاء الممر الفسيح. كان على كل ركاب الطائرة أن يُرَحَّلوا بالحافلات من المطار في خان يونس إلى معبر رفح البري حيث يجري التحقيق والتفتيش. لكنني بقيت واقفة على أرض المطار الخالية إلا مني ومن الطائرة حتى آخر انكسارات الأشعة على البلح الأحمر.

لأول مرة يعمل بعد عامين من إنشائه، تصميم مطار غزة هدية المغرب لفلسطين، على غرار مطار الدار البيضاء. جاء مئات الحرفيين المغاربة خصيصاً لتركيب قطع الخزف الملون التقليدي. بنت ممرات المطار سواعد عمال المقاولين العرب. خلال أشهر انتظار الإذن باستخدامه وتحليق طائرات الخطوط الجوية الفلسطينية، تحول لمقصد رحلات المدارس، وللعرائس من أنحاء القطاع صباحاً ببذلة العرس والثوب الأبيض. برج المراقبة والمبنى الأبيض صارا الخلفية الرسمية لصورة العرس.

شاحنة كبيرة متجهة إلى المطار محملة بآلاف باقات الورود، شكلت بزهرات القرنفل الغزاوية بكل الألوان. الحرس الرئاسي في حالة استعداد قصوى أمام الطائرة، انتظاراً للرئيس ياسر عرفات. الرحلة اليوم مختلفة فهو منطلق إلى النرويج ليتسلم جائزة نوبل للسلام مشاركة مع رابين وبيريز. وقفت من بعيد ملوحة لأبي على سلم الطائرة. وعدني بتلبية طلبي الدائم، أن يجمع لي أكبر قدر من التذكارات من الحفلة: قائمة الطعام، علب الكبريت، إمضاءات الحاضرين...

لجنة الجائزة اشترت كل الزهور التي أتت معه بالطائرة، القرنفلة بدولار، وأهدت زهرة لكل ضيف مدعو إلى الحفل. وقع الاتحاد الأوروبي عقداً بشراء عشرة ملايين زهرة من غزة كل عام من دون جمارك إضافيّة.

(أقدمت بعض الشخصيات الفلسطينية على توقيع بيان وتوجيهه إلى الجماهير، طالبين منها الوقوف معا لمواجهة طغيان السلطة الفلسطينية وفسادها – أعلن النائب العام أن النيابة تحقق مع عدد من رجال الأمن وبعض المسؤولين حول أموال فقدت لحساب موظفين، وأن التحقيق سيستمر حتى تحويلهم للقضاء – بحجة الأمن السلطات الإسرائيلية تتلف ٦٠ في المئة من الزهور المعدة للتصدير).

على رمال شاطئ دير البلح موقف مزدحم لعربات تجرها الحمير. اصطف الموظفون، وطلاب المدارس بعد أن قطع جيش الاحتلال الإسرائيلي شارع صلاح الدين الذي يصل جنوب القطاع بشماله... ثم جرف أيضاً جزءا من الطريق الوحيد الآخر، كورنيش البحر. لم تبق وسيلة للعبور من جهة لأخرى إلا داخل المياه. الذي ليس باستطاعته دفع عشرة شيكل يومياً ليركب العربة مع عشرين آخرين، يحمل حذاءه تحت إبطيه، وحقيبته ويمشي في الماء. والمتيسر ينتظر دوره ليركب.

وصلت من مصر عن طريق معبر رفح. كانت اتفاقيات «غزة أريحا» تفرق في المعاملة في إجراءات السفر وتعطي صفة «الشخصيات المهمة» للمسؤولين في السلطة وعائلاتهم. بعد بداية الانتفاضة ألغت إسرائيل جميع الاتفاقيات. لكن المسؤولين عن موقف العربات، اعتبروا أني شخصية تستوجب معاملة متميزة على أساس أني من عائلة مسؤول في السلطة. لذا أركبوني عربة وحدي، يجرها حصان بدلا من الحمار. تربعت على القاعدة الخشبية أنا وحقيبة سفري وسط ضحكات الجماهير المنتظرة. بقيت مشكلة العبور بين شمال غزة وجنوبها عاماً بأكمله.

(التحذير من نفاذ السلع الغذائية الأساسية في قطاع غزة في غضون أسبوع – وزارة الصحة تدعو الجميع إلى المحافظة على المستشفيات والمراكز الصحية وعدم جعلها ساحة للقتال).

منذ أن احترقت الدنيا في غزة تتصل صديقتي من خان يونس يومياً. في القاهرة لتطمئن عنا. تحاول أن تصل إلى منطقة بيت لاهيا لتصور لنا ما تبقى من البيت. الطريق طويل وخطر بين جنوب القطاع وشماله. البارحة اتصلت وقالت إنها متجهة لسوق فراس الذي يعمل من السابعة حتى العاشرة صباحاً. وعدتني بالبحث عن صور جدي ورسائله، طوابع أبي واللوحات التي كانت تزين جدران داره، وبشرائها طبعاً لو وقعت عليها.

أتخيل سوق فراس في وسط المدينة مزدحماً كالمعتاد. يبسط البائعون الخضر والفواكه، ومستحضرات التجميل المصنعة محليا والمعبأة في عبوات مستوردة. خردة وملابس بالية، وأشياء قديمة ضاقت بيوتها منها. صيحات وجلبة أطفال يتراكضون بين الباعة والمشترين. صناديق وعلب كرتون مكدسة، قشور فواكه وأكياس بلاستيك متناثرة هنا وهناك. كان ما يبعثني دوماً على الابتسام في السوق: الموقف المخصص للحمير. اليوم خلا مكانه.

التوتر يسود الجو. ثاني يوم بعد سيطرة حماس على غزة. مسلحون من الحركة التنفيذية يملأون الساحة ويرعبون المشترين القلة الذين استطاعوا المجيء. بائعون جدد فرشوا بسطاتهم، يعرضون بضاعة أتت لتوها: لوحات فنية، صور قديمة بالأبيض والأسود، عدد كبير من ألبومات الطوابع. نياشين وشهادات، ميدالية جائزة نوبل للسلام.

طفولة سعيدة

الحرب الأهلية اللبنانيّة بلّشت بـ١٣ نيسان ١٩٧٥.
أنا خلقت بـ٢٤ آب بنفس السنة.
مازن كرباج يقدّم مازن كرباج في:
طفولة سعيدة
أوّل كم سنة من حياتي بلّشت كوّن خبرتي. بعمر ٦ سنين صرت
أعرف الفرق بين طلعة القذيفة و نزلتها، من صوتها.
و صوت الصفير كان بيعني إنّو القذيفة مرقت فوق روسنا.
طلعة!
زززززز
هاهاها... مدري أيا أهبل رح توقع عراسو!
نزلة بنت كلب!
بلا قلّة تهذيب!
دعوة لحضور حفلة
ألعاب نارية
هذا المساء، الساعة السادسة
في برج رزق
بالإضافة إلى تنمية حاسة السمع عندي، القذائف خلتني اتعلّم أشيا كتيرة.
هيك تعلّمت مثلاً أوّل درس بالفيزيك أنا وعم بتفرّج عليهم عم بينفجروا بالبرج اللي بوجّ بيتي.
اللحظة "أ"
شو كنت شوف
اللحظة "أ"
بوووم
شو كان البرج يسمع
اللحظة "أ"
شو كان البرج يشوف
اللحظة "أ" وكذا ثانية
بوووم
شو كنت إسمع
الصورة بتعبر الزمن
أسرع من الصوت!!!
القذائف عطتني الدليل القاطع
إنّو الانسان كتير صغير
قدّام الطبيعة.
ما في انسان بالعالم، ولا حتى رامبو، بيقدر يفرشخ بخرطوشة قذيفة!
كنّا نجمّع كمان الشظايا.
كان عندي كيس مليان شظايا.
و هالشي نمّا عَ بكّير ولعي
بالفنّ التجريدي.
هيدي أشكال حلوة! هالمسكين بيكاسو واحد أهبل...
١٩٨٣
١٩٧٥
١٩٨١
بس حتى تفرض هيبتك بالمدرسة، أفضل وسيلة
كانت القنبلة اليدويّة المعطّلة
و أخيرا عندي ومدة.
طبيعي بتين مرتين بنفس الحالة؟
نصائح عمليّة
حلقة رقم 231 - كيف تعطل قنبلة يدوية
تحتاج إلى: برميل فارغ وقنبلة
رسم 1
رسم 2
رسم 3
إمسك بالقنبلة Ⓐ وقم بفك جزئها الأعلى Ⓑ (رسم 1).
إسحب الصمّام Ⓒ (رسم 2). إنتبه لم يعد لديك سوى عشر ثوان قبل أن تنفجر الكبسولة Ⓓ.
إرم الرأس Ⓑ بسرعة في البرميل الفارغ Ⓔ (رسم 3).
رسم 4
رسم 5
رسم 6
إنتظر انفجار الكبسولة Ⓓ في البرميل الفارغ Ⓔ (رسم 4).
بعد انفجار الكبسولة Ⓓ تستعيد Ⓑ (من دون Ⓓ) من Ⓔ، وبعدها تعيد Ⓒ إلى Ⓑ.
ثم تضع Ⓑ في Ⓐ (رسم 5)... وتحصل على قنبلة معطّلة Ⓐ (رسم 6).
الأسبوع المقبل: كيف تنزع الألغام من حديقتك
الأهبل يلي قلّي الصمّام مقابل
عشرة آلاف ليرة قطّش
إصبعو لأنّو ما عرف يعدّ
العشر ثواني.
ما بتعطيني ٥ آلاف زيادة؟
روح انضبّ!

مازن كرباج

رسمت هذه الشرائط المصورة بالفرنسية في العام ٢٠٠٢، و تنشر للمرّة الأولى بعدما أعيد تنفيذها بالعربية خصّيصاً لـ «زوايا»

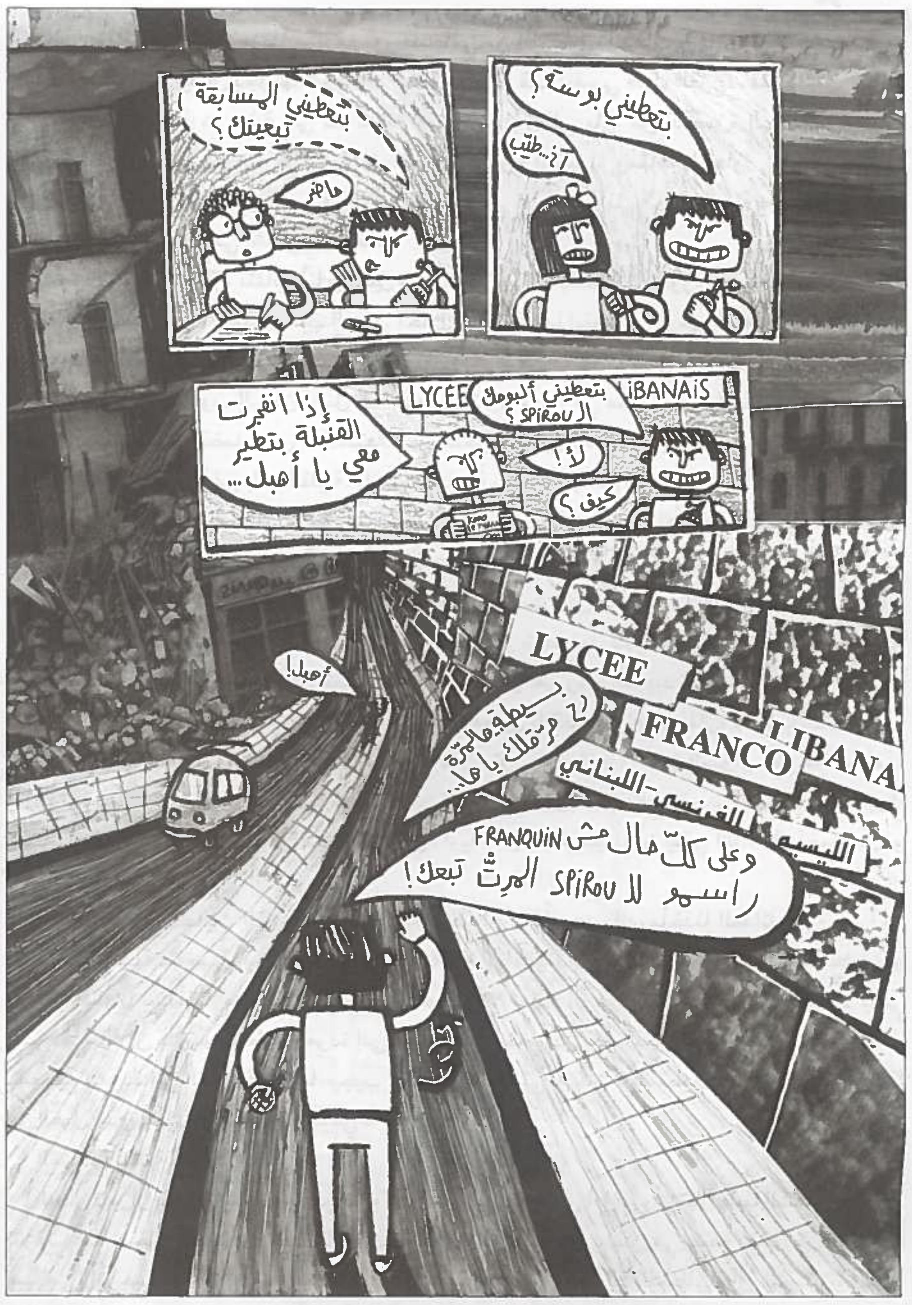

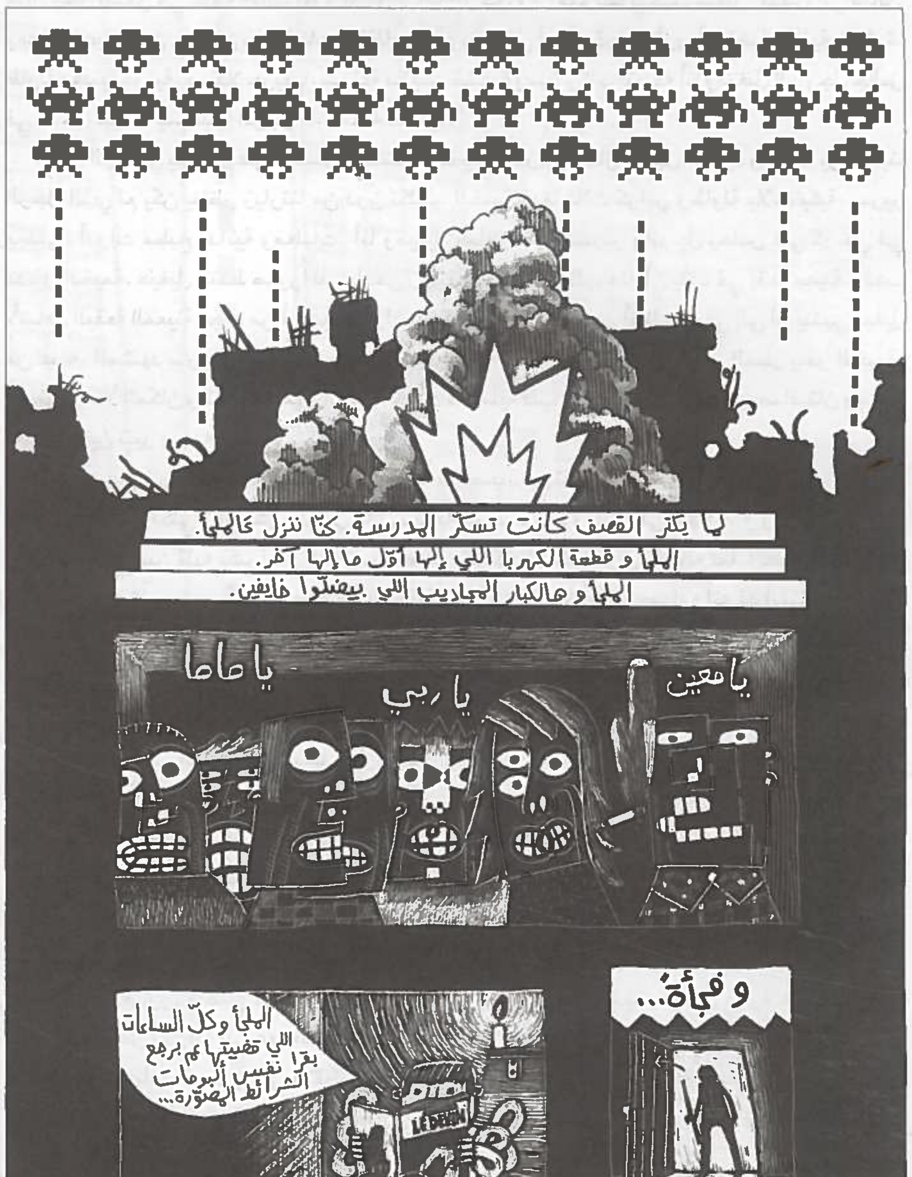

منى برنس

أتركُ الخيبة ورائي

◆ انتهت إثارة كأس العالم، وبطحة زيدان. وعاد الملل والاضطرار لمواجهة النفس المتعثرة، والكتابة الهاربة. وبين الملل واضطرار المواجهة، أحلم بكلاب مسعورة، تنهش قططاً وليدة. أقوم من نومي فزعة، أذهب إلى دكان قريب لأشتري بناً. البائع مسمّر أمام شاشة التلفزيون.

بيروت ـ مباشر. دخان و رماد وأجساد تحت الأنقاض. حرب على لبنان. يصيبني ذهول. والبائع يريد التطوع مع حزب الله.

ـ بتعرف تشيل سلاح؟ (يهز رأسه أسفاً).

أشتري البن و جريدة. أحاول أن أفهم. لا أفهم. وأنا أيضاً لا أعرف حمل السلاح. أذهب إلى البحر، أدفن رأسي في رمل الشط. لا أقوى على الاختناق. أغمر رأسي في الموج، نفسي لا تطاوعني، أطفو خائرة من دون قوة.

سيبيدوننا مثل الهنود الحمر، على امتداد الأرض. ونحن نستجدي صداقتهم، ونسوّق سلعة المبادرة العربية ثمنا لأكبر كمية دم يراق. العجز سيجعل مني قاتلة، والقهر قد يجعل مني انتحارية. سأكون مجرمة مثلهم، القتلة. وأنا أكره الدم، و العنف، والقتل. وأنا في الأصل لا أعرف حمل السلاح. لأهدأ إذاً، وأفرغ انفعالات المراهقات في لكمات وهمية على وسادة مهترئة.

أحمل غضبي، وضعفي، وذنبي، وحماسة تحررية ستينية قديمة ـ كنت أظن أني تخلصت منها ـ فجّرها مقاتلو حزب الله. لكني لست مقاتلة. أدّعي الحداثة و وجداني قديم! أحمل لعب طفولتي وطفولة أصدقائي، تلك التي كنا سنهديها لأطفالنا الذين لم يولدوا بعد. وأذهب إلى لبنان. سأقدم اللعب لأطفال أجبرتهم إسرائيل على التخلي عن طفولتهم، ليصيروا نازحين في مدارس وبقايا منازل. ترى كيف سيصبح شبابهم؟

بيروت تفاجئني. «نتضامن» نهاراً تحت قصف همجيّ، ونخطط لتظاهرات عارمة... ونسكر ونرقص ليلاً في البارات. كأن الحرب في بلد آخر. في بيروت روح نفتقدها في القاهرة. يداعبني الأمل الستيني من جديد. عرب وأجانب يتدافعون إلى لبنان. الكل يريد أن يتضامن. الكل يريد أن يرفع عبء تواطؤ بلاده عن كاهله. الكل يعتذر. الكل يبحث عن ذات أخرى غير ذاته.

ليلة وقف إطلاق النار كانت عيداً. سكرنا حتى الفجر، حتى آخر مجموعة قنابل حيتنا بها إسرائيل صباحاً.

ثم هدوء... ثم تسوّق محموم في شارع الحمراء.

أندفع بحماس المراهقات. أترك كل شيء في القاهرة، وأعلن أني سأبدأ حياتي من جديد في بيروت. لافتات الشكر تواجهني في المطار. بدأ سباق "بيزنس" الاعمار.

جمعيات، وهيئات، ومنظمات إغاثة مختلفة. يشتد التنافس على التضامن المدفوع الأجر! التضامن الإنساني كان حالة استثنائية، ومع انتهاء الحرب طفت النعرات القبلية على السطح. أكتشفُ أن اللبنانيين لا يعرفون بعضهم.

سأجمع حكايات الحروب، وسأبدأ بالأخيرة: بحرب تموز.

مشروع طموح كي يتعرف اللبنانيون بعضهم إلى البعض الآخر! أتجول في الجنوب، في الضاحية. خراب يفوق قدرة كل اللغات على الوصف. شهداء غدر، أطفال وشباب يؤطرون في صور. يلتحف أهلهم السواد، لكنّهم لا يبكون أمام الغرباء. أرملة مقاتل تريد أن يكون طفلها «متل بيّو». مزارع فجّرت قدمه قنبلة عنقودية. رب أسرة يسكن خيمة أمام ما كان بيته، يخطط لبناء بيته للمرة الرابعة.

الكل يشيد بالفكرة، لكن لا أحد يقدم عوناً حقيقياً.

أو يشاركني في جمع الحكايات. مشغولون بتعويض خسائرهم المتعددة. مفهوم. وما شأنك أنت يا مصرية؟

يسخر بعضهم. مفهوم أيضاً. تفجيرات، اغتيالات، اتهامات. مظاهرات نصف مليونية. مظاهرات مليونية. أولويات مغلوطة... انتهت الحرب، وبدأ العبث السياسي.

ولا مكان للحكايات. الشعارات سيدة الموقف. أحمل حقيبتي و أعود من حيث أتيت. من أنا كي أعرّف اللبنانيين على بعض! عندهم حق.

أفيق من وهم الحلم. أترك خيبة الأمل ورائي، وأعود إلى القاهرة. ألزم داري. أعتني بكلبي وبحديقتي الصغيرة. وأتفرغ للحب المطلق. الحب غير المشروط. ■

غودو سيأتي إلى كفرا

◆ حين طلب مني ميغيل فرناندس، مصور صحافي من البرتغال، الذهاب برفقته إلى الجنوب للقيام بترجمة حوارات يريد أن يجريها، لم أتردد لحظة واحدة. قلت لنفسي «جاء الفرج». فقد سئمت حياتي في بيروت التي صارت عبثية إلى حد كبير، التنقل من بار إلى بار، من الجميزة إلى الحمراء ليلاً، وقراءة فناجين القهوة وورق التارو والتسكع في شوارع الحمراء ومقاهيها نهاراً. حتى الأخبار لم أعد أتابعها، أنا التي جئت من مصر في الأساس لمتابعتها عن قرب. أنام في الخامسة صباحاً وأستيقظ بعد ثلاث ساعات. إلا أنني أشعر بالنشاط.

الصباح رمادي ممطر. نتقابل أنا وميغيل في الكولا. نستقل باصاً إلى صور. المسافة ساعة ونصف الساعة، قد تطول إلى ساعتين بسبب المطر. أحاول استئناف ما انقطع من نومي، لا أفلح. أمسح البخار عن النافذة وأتطلع إلى السماء. الغيوم كثيفة وتنبئ بمزيد من المطر. أتبادل الحديث مع ميغيل حول ما يريد أن يفعل في الجنوب إلى أن نصل إلى صور. نتناول قهوة في محل ثم أتصل بمسؤول الصحافة الخاصة بحزب الله في قضاء صور، للاستعلام عن ضحايا القنابل العنقودية. يعاود المسؤول الاتصال بنا، ويعطينا بعض الأسماء في بلدة القليلة. نلتقي مصادفةً بصديق لبناني لميغيل يوفر لنا سيارة وسائقاً.

نتوجه إلى القليلة، إلى منزل أحد المقاتلين الذين أصيبوا في الحرب الأخيرة. يستضيفنا المقاتل لكنه يرفض الحديث عن إصابته، أو عن أي شيء يخصه كمقاتل. فقط وجهة نظر الحزب. أسأله كيف سيصبح الوضع إذا تم الاتفاق على المسائل المعلقة مع إسرائيل، يجيب برد السيد حسن نصر الله. حين يجيء ذلك الوقت، سيكون حديث. ولا يبوح برأيه هو شخصياً. ثم يأخذنا إلى منزل أسرة شهيد. أرملة الشهيد وأبناؤها الأربعة في انتظارنا. تقدم لنا حلوى على روح الشهيد ثم تجلس. أتبادل الحديث معها عن الشهيد وعن حياتها الآن. لا تبوح بالكثير. ميغيل يلتقط صوراً للأطفال، ثلاث بنات وصبي. اسأل الأم كيف تتخيلين مستقبل ابنك. تنبري قائلة «متل بيّو، مقاتل». أعيد السؤال بطريقة مختلفة، إذا لم تعد هناك مشكلة مع إسرائيل، ماذا تريدين لابنك أن يكون. تنظر إلي بتردد. أشرح، يعني طبيباً، مهندساً، مدرساً، طياراً... تفكر للحظة ثم تقول، أريده أن يتعلم جيداً، أن يتقي الله... ثم أضافت. هو الذي يختار حينها ماذا يود أن يكون.

أترجم لميغيل الحديث الذي يدور. لا يقتنع، ولا أنا أيضاً. بعد ذلك، يأخذنا المقاتل إلى بيت أحد المصابين بقنبلة عنقودية. مزارع أجير أصيبت قدمه أثناء قيامه بجمع الليمون، فأجريت له عملية بتر لثلاثة أصابع. يستأذنه ميغيل لالتقاط بعض الصور. لا يمانع الرجل ويتخذ أوضاعاً. وجهه لا يشي بشيء. أساله إن كان سيستطيع العودة إلى عمله. يجيب بنعم لكن بعد سبعة أشهر. أسأله إن كان نفسياً يستطيع العودة الى المزرعة نفسها. يجيب أيضاً بنعم. وحتى لو كان لا يستطيع نفسياً سيعود، لأن هذا هو العمل الذي يجيده ولديه عائلة تنبغي له إعالتها.

المحطة التالية كفرا.

المطر لا يزال يهطل والسماء رمادية والوقت عصر. لم يعد عندي أمل في أن تطل علينا الشمس بدفئها. نتوقف عند مدخل البلدة أمام أحد المحلات. ميغيل يسأل عن رجل يسكن في خيمة مقابل مركز ثقافي إسلامي. أترجم. لا أحد يعرف شيئاً عن مركز ثقافي إسلامي. أنتبه إلى الخطأ. أقول الحسينية. نعم، هناك رجل يسكن في خيمة هناك. أنا لا أستوعب ما أترجم، ولا أفهم عما يتحدث ميغيل. نذهب إلى هناك. و«هناك» عبارة عن خيمتين من اعانات الـ UN، منصوبتين في أرض خراب. أرى أغراضاً منزلية مبعثرة، طاولة معدنية مرتبة، صندلاً حريمياً، شماعة ملابس خشبية وسط ركام. نتوجه أنا وميغيل إلى رجل جالس في مدخل خيمة. يستقبلنا الرجل بابتسامة صافية.

اللون الرمادي يسيطر على المشهد. السماء، الخيمة، كنزة وبنطال الرجل، شعره وعيناه. يرحب بنا الرجل الذي لم يكن ينتظر زيارتنا من دون تكلف. الخيمة فيها ثلاث كراس وطاولة بلاستيكية، سرير معدني، أدوات مطبخ بدائية ومعلبات. أنا وميغيل نجلس على السرير والرجل يجلس على كرسي في مدخل الخيمة. ميغيل يلتقط صوراً للرجل من زوايا مختلفة ثم يطلب منه أن يقف في بقعة معينة. أذهب لأشاهد البقعة المعينة. جزء من أرضية سيراميك، كانت غرفة الجلوس. أتطلع حولي إلى أن ينتهي ميغيل من عمله. المشهد سريالي تماماً. رجل فقد بيته ودكانه يسكن في خيمة «أمامه». المطر ينقر الخيمة، الرطوبة تملأ المكان وتنخر عظامي، الرجل أجريت له عملية قلب مفتوح، عيناه رماديتان صافيتان وبسمة تعب السنين تنير وجهه.

أقدر أن عمر الرجل خمسة وستون عاماً. غالباً ما أصيب في تقديري للعمر، لكنّه يقول إن عمره ثمانية وأربعون. أُصدم لكني لا أندهش. الرجل عاش تجربة قصف وهدم واعمار في عام ١٩٩٣ و١٩٩٦ و٢٠٠٦، واستبدلت شرايين قلبه بشرايين الساق... وهناك بالتأكيد أشياء أخرى. أسأله لماذا يسكن في خيمة، ولا يستأجر بيتاً. يجيب بأنه لم تعد هناك بيوت للإيجار في البلدة أو نواحيها، وانه قد استأجر لأسرته (زوجة وتسعة أبناء) منزلا في الضاحية الجنوبيّة لبيروت. لكن الأهم أن مكانه «هنا». وماذا تفعل؟ أسأله مجدداً. يجيب «أنتظر». مرّ شهران ونصف تقريباً على وقف إطلاق النار والرجل ينتظر مجلس الجنوب، والبلدية التي لا تعمل إلا في الـ «ويك اند». هذا حال من لا ينتمي إلى أي حزب.

«أنتظر». يردد. أتبادل أنا وميغيل نظرة، نفكّر كل على حدة بمسرحيّة بيكيت الشهيرة عن «انتظار غودو».

يحكي الرجل من دون أي نبرة ميلودرامية، من دون كلمات كبيرة، ومن دون أن تفارق البسمة المتعبة شفتيه. نشكره على استقباله، وعلى شيء آخر لم نبح به أنا وميغيل. هو أكثر إنسان حقيقي قابلناه في هذه الجولة. نتبادل أرقام الهواتف. يخرج ورقة مطبقة من جيب بنطاله ليسجل عليها رقمي. أنظر إلى الورقة. رسم البيت الذي سيعمره للمرة الرابعة.

نعود إلى صور. نقضي الليلة في فندق الفنار في حي الميناء القديم. الفندق عبارة عن بيت عائلي كبير يعود بعض أجزائه إلى عهد الصليبيين. أجلس أنا وميغيل على صخرتين متجاورتين ونبلل أقدامنا بماء البحر. نشاهد الصور التي التقطناها ونقارن. أطفال الشهيد، الرجل الذي أصيب بقنبلة عنقودية، والرجل الذي يسكن خيمة يعيد رسم بيته وينتظر مجلس الجنوب. ميغيل يقرر أنه لن يستخدم إلا الصورة الأخيرة.

نعود الى بيروت. أنتبه الى أنني قد نسيت تماماً بيروت وباراتها و شوارعها وفناجين قهوتي وأوراق التارو. أعود بصورة وحيدة عالقة بذهني، صورة رجل واقف أمام خيمة على أرضية سيراميك، في خربة كانت بيتاً قبل أشهر قليلة. في مكان من الصورة تبعث أغنية فيروز «سنرجع». ■

مدينة عريقة للمستقبل

الترقّب

رائد ياسين و حاتم امام

برجا المرّ، بيروت

اصمتوا قليلا أيها الجنود!

علي بدر

تذكرت مشهد موت الجنود أول مرة، عند ضفاف المتوسط في خليج مدينة طبرق. قادتني خطواتي الثقيلة إلى مقبرة الجنود الانكليز الذين قتلوا في الحرب العالمية الأولى. كانت المقبرة ترتفع على ربوة تطل على البحر، ومن بعيد كانت البوارج الحربية تمخر في الخليج، وتدير مدافعها إلى أعلى. لم أكن حزيناً ولا مفتوناً بهذا الشريط الطويل من الراحة الصامتة، أو بهذا الخط الأزرق من البحر في جماله الأصم والمذيب. بل شعرت بلحظة صمت نافذ، وبشيء من النسيان والنوم، وأنا أرقب مصباح الفنار يشتعل عبثاً على طول الرصيف. كان نوعاً من التسلية الطفولية أمام غبش المضيق، وهو يمحى مع زرقة السماء. كان نوعاً من السحر بعد ظهر هادئ ومضيء في هذه المقبرة الغامضة. كأني وجدت زمناً آخر في هذا النور الكاذب، وهو يصارع تمددات الظلال لسياج المقبرة، أو في هذه الخلجات الضعيفة لأمواج البحر، وهي تقلق الحياة الغافية للجنود الموتى، وأكثرهم من الشباب في سن العشرين، شأنهم شأن أصدقائي الذين قتلوا في الحرب مع إيران.

هذه الكلمات في ذكرى جيلي الذي لم يكتب حكاياته الصغيرة بعد، ذكرى أصدقائي الذين قتلوا، ذكرى صورة الموت الرزينة المتكررة، ذكرى الجدار العاري الذي يبهر، جدار الحرب، وقد لطخته الدماء التي لا عمر لها.

تجمّعنا عند لسان عجيردة، وهو اللسان الترابي الذي يشق الهور من جهة الشرق. تجمعنا هناك في مواضع شقية عميقة. آلاف من الجنود تزاحمنا بملابسنا الكاكية المنقوعة بالمطر، وخوذنا الحديدية المشبكة، وأسلحتنا. ودخلنا مواضع كثيرة، وضعت في أعلاها أكياس صغيرة من الرمل. أما جهاتها المفتوحة فقد كانت غاطسة بالمياه والوحول بصورة شديدة.

كان الطين من العمق بحيث أننا نغوص فيه إلى العرقوب، فلم يتوقف المطر أبداً منذ يومين كاملين. كانت السماء تمطر بشكل متواصل، وبوتيرة واحدة، حتى غطى الفضاء كابوس من الماء. قبل أن نلتحق بهذه المعركة، منذ عشرة أيام تقريباً، كان جنود وحدتنا يصدون الهجوم من جهة العمارة، حيث أعداد ضخمة من الجنود الإيرانيين راحت تتوغل عند اللسان الترابي، وتتجمع في مفارز مسلحة عديدة.

في الواقع، منذ ثلاثة أشهر وأنا في جبهة الحرب، غير أني لم أشترك في معركة حقيقية ولا مرة أبداً. كنت قبلها في المواضع الخلفية، عند خطوط التموين، أرقب بصمت الجنود الجرحى على النقالات، والضباط القتلى في التوابيت. كنت أنظر نحوهم من بعيد ولم أقترب منهم أبداً، وعلى المدى الممتد، كنت أرقب مواضع التموين وهي تقبع في توازن صارم، ما خلا قنابل المدفعية التي تهبط على الكتل الإسمنتية الثقيلة فوق خنادق المعسكرات.

كانت المدينة حزينة وبعيدة، كأنها منفية في أقصى تخومها، وهي خالية تماماً، خالية أبداً... ما خلا الشاحنات التي تنغر في الطين وهي تخترق شوارعها، ومن المكان الذي كنت فيه كان يمكنني أن ألمح التراصف القاسي لأجساد الجرحى على النقالات، والممرات الباردة حيث الممرضات بمراويلهن البيض يسرن في الهيكل المحكم للمستشفى العسكري، أو في مخيم الطوارئ، كنت أرقب، حزيناً، ذلك التشابك المأتمي للأشجار العملاقة، وهي ترتفع قاتمة يحيطها ضباب كثيف، وبين وقت وآخر تمر أرتال من الجنود بستراتهم المتسخة أمام الحواجز المشبكة، أرتال من الجنود الذين سيقتلون بعد ساعات. صورة أخرى تكمل الكابوس.

كان الضابط الشاب خشن المظهر، بشوارب سوداء فاحمة، وبنظرة صارمة، منشغلا بالتحديق في خريطة جغرافية موضوعة على الطاولة. في تعبيره العبوس والصارم قدرة هائلة على التجاهل والاستنكار. لا أدري لماذا نظر لمظهري نظرة احتقار متعمد، في مظهره الريفي هذه العجرفة المتكلفة، والحقد غير المبررين اللذين عرفت أني سأواجههما كثيراً هنا في جبهات الحرب.

أمرني بالالتحاق بمعسكر التعويض القريب من المستشفى.

حملت يطغي على ظهري ووضعت سلاحي على كتفي، وسرت نحو الشاحنة المتوقفة على مقربة من المقر. رميتُ نفسي على حديدها البارد، وزحفت نحو الزاوية اليمنى وجلست مقرفصاً، دافعاً ركبتي إلى أعلى صدري. كنا أكثر من عشرين جندياً منحشرين على الحديد البارد، جالسين، ننظر بصمت مذهول إلى بعضنا.

سارت الشاحنة على الطريق الطويل الذي يصل المعسكرات الخلفية بخنادق القتال. مرت بمعسكرات عديدة، معسكرات مهيبة تحمل على ساريتها الكثيرة أعلام الفيالق ورايات الأفواج. صور القصف الشديد تتلاحق في الطريق، سيارات إسعاف ملأى بالجرحى تمر بسرعة وهي تطلق صفاراتها، شاحنات التموين تمر متتابعة واحدة بعد أخرى، وعلى جانبي الطريق العسكري محطات كثيبة مزدحمة بالجنود على العكازات، ومدن كالحة حطمتها المدفعية تماماً، وخنادق موحلة، متجمدة من البرد.

لا أحد يتكلم منا في هذه الفسحة المتبقية من الحياة. كان الصمت وحده كافياً ليدلل على هذا التغلغل البطيء للموت فينا. كان وحده كافياً لكي يطبع المدن المهجورة التي نمر بها والمنازل المحروقة، بطابع موتنا المؤجل. وما يخطر في البال بعد هذا التخريب والدمار، هو الصمت الجذاب والخجول، لهؤلاء الجنود الذاهبين في هذه الظهيرة الممطرة الكثيبة، إلى مصير مجهول.

بعد المعارك الساخنة الأخيرة قتل أكثر جنود الألوية والأفواج المتجمعة في المواضع المتقدمة عند الجبهة، فأخذوا يعوضوننا بهم. ولهذا كانوا يسمون معسكرنا الخلفي مركز تعويض.

«مركز تعويض» هكذا يلفظها الجنود نكرة. معسكر مسيج بأسلاك شائكة، يمتد على مساحة كبيرة عند الخطوط الخلفية ومراكز التموين، غير أن الوصول إليه هو بداية النهاية المحتمة. فالتعويض مستمر لأن القتل كان مستمراً. كان الموت وحده الذي يزحف، ويلتهم من دون توقف هؤلاء الأحياء. أنت تعوض المقتول، وتشعر في الوقت ذاته أنك مقتول مؤجل، وهناك من ينتظر لتعويضك... ولا تفكر إلا بأمل ما في الحياة... أمل لا يقهر. وفي لحظات العذاب، تفكر بالاستعداد لتقبل فكرة الموت، مثلما يتحمل المرضى فكرة السرطان من دون أن يشتركوا في دفعه قط. ولا شك في أن أكثر الأفكار ثباتاً في الحرب هي أن الموت والحياة سيان. في اللحظات الأكثر قسوة، تتبادل هاتان الفكرتان المواضع حتى يلتبس عليك المفهومان تماماً.

ماذا أفعل هنا بين الجثث والخرق والقشور؟ إنها رغبة البقاء، والشعور بالحياة كلحظة ممتدة، والوقوف أمام عذاب الحرب، وبشاعة القتل، وابتسامة الجنود المؤقتة...

بعد مسيرة يومين وصلت المعسكر. كانت قمصلتي الكاكية قد تنقعت تماماً، المطر يسيل على وجهي ويهبط من ذقني بصورة متواصلة. أما الوحل فقد علق بحذائي حتى منعني من السير بصورة مريحة. كنت نحيفاً جداً وشاحباً. عمري ثلاثة وعشرون عاماً. تخرجت من الجامعة منذ عام تقريباً، لم أشترك في معركة من قبل، ولا أعرف ما هي المعركة. كل ما أعرفه عن الحرب كنت قرأته في روايات همنغواي وإريش ماريا ريمارك وتولستوي.

لشدة تعلقي بالقراءة خاطت لي أمي جيباً داخلية في القمصلة العسكرية لتحوي على الأقل كتاباً أو كتابين صغيرين أحملهما معي أينما ذهبت. وفي ساعات الاستراحة، كنت أجلس منعزلاً عن الجنود وأغرق في كتابي. أغرق في السطور كأني في زمان ومكان آخرين. كأني أعيش في عالم آخر غير العالم الذي أجبرت على الوجود فيه، ومختلف عنه تماماً.

القراءة... كانت امتيازاً فادحاً حقاً، كانت هروباً من عالم إلى عالم آخر. وهكذا، في كل ساعة تقريباً، وحتى تحت القصف الشديد والهلع المروع لهجومات لا حدود لها، كنت أذهب بعيداً، أذهب بسرعة مع الأحداث من غير توقف، متسلحاً بقوة الشغف التي تتملكني، كي لا أعود إلى الزمان والمكان اللذين أعيش فيهما.

كنت أتساءل على الدوام: هل كان بطل بروست الشاب، أكثر حكمة، حينما دخل إلى حجرته منعزلاً، وغرق في كتبه كي يتفادى رؤية جدته وهي تتألم؟

بعيداً عن تعفن جثث القتلى القادمة مع الهواء من ساحة المعركة، أو بعيداً عن البارود الذي كان ينفذ إلى أعماقي حتى يجعلني أتقيأ، بل يفتك أحياناً بأحشائي، حتى يصبح التقيؤ أمراً تافهاً بالقياس لما كنت أشعر به، كنت أذهب إلى العزلة السرية للقراءة. أذهب هناك إلى الألفة المطمئنة، كي أشم من سطور كتابي عبير سوسنة بعيدة، أو رائحة خشب مكتبتي الممسوح بالاسبرتو، أو رائحة الحجر في منزل ما وقد نقعه الماء.

كانت القراءة بديلاً حقيقياً عن الضراعة الذهنية التي تعصف بي، كانت نوعاً من الافتتان بالانسحاب من حياة تعيسة مقدرة، وتلذذاً غير محدود بتشوش الخيال. كنت موجوداً بين القتلى، أو الموتى المؤجلين، وحتى أنا كنت مقتولاً لا محالة، لكني أشعر بنفسي جالساً مثل مشمشة برية نبتت خارج أحجار السور.

ترجلت من السيارة العسكرية وأديت التحية للضابط. فأمرني بالدخول إلى الموضع شبه المعتم. تحت غشاوة أصوات الانفجارات والصور

المتلاحقة، كان المشهد يتلاشى شيئاً فشيئاً ويتشوه. لم أعد أرى شيئاً، ما خلا ضرب من العتمة الباهتة، وليل مبلل من المطر راح يحجب كل شيء. ما كان المطر ذلك اليوم الشديد العاصف يكف عن الانهمار، صار كل شيء ماء: أكياس الرمل على باب الموقع، والجندي الحامل سلاحه، والكلمات التي تبادلناها، وهي تخفي في نهاياتها بلل الشفاه المقدر من ماء يسيل من الجبين إلى الذقن.

دخلت بخطى متباطئة، سلاحي بيدي. خوذتي الحديدية انحرفت قليلاً ولم أعدلها، ذلك أن أمتعتي على كتفي كانت تثقلني، وحذائي الضخم المتعثر بالماء والوحول كان يثقلني. وكل دقيقة كنت أتحسس كتبي الموضوعة في الجيوب الداخلية التي خاطتها لي أمي، مضطرباً من خشيتي عليها من البلل، ومدركاً مظهري المضحك وخجلاً منه أيضاً.

كنت ذلك الوقت أنشغل كثيراً بالمظاهر والأشكال الخارجية، وأعير اهتماماً شديداً لهذه الأشياء السطحية، بسبب التربية وبسبب العمر. غير أن ما خفف هذا الأسى المفروض عليّ، هو الابتسامات التي قابلني بها الجنود الأكبر سناً. حيوني تحية مودة وهم يحرسون عند واجهة الموضع. كانت ملابسهم الموحلة تقطر ماء. خوذهم الكاكية تقطر. وجوههم الشابة منقوعة تماماً، وإلى اليوم أتساءل أفي هذه الساعة من القتال، كان لهم الوقت لتحيتي، ولتقديم ابتسامة لن أنسى وقعها أبداً؟

تلفتُ في الموضع المختنق الصغير، كان أحدهم يحمل كتاباً بيده مقترباً من فانوس صغير كي يقرأ على ضوئه الضعيف، وهذا ما أفرحني جداً.

اقترب العريف من الفانوس رفع زجاجاته من المقبض وأشعل سيجارته وأخذ ينفث الدخان في الهواء.

شخص آخر كان يجلس بعيداً تقريباً عند الزاوية اليمنى، يجلس على ركبتيه وهو يزيت بندقية في يده. في هذا الموضع المحتشد بالعتاد والأسلحة والصحف والكتب، كانت مجموعة من الجنود تنام متكئة على جدار الموضع، مغطاة بالبطانيات. نظرت إليهم: أرجلهم ملمومة إلى بطونهم، ورؤوسهم وجزء من الكتف والظهر متكئة على الجدار. أما أنا فقد كنت متعباً، وخائفاً، ومشوشاً كثيراً. هل في هذا اليوم ساعة الهجوم؟

قالوا: لا، ربما غداً.

نظرت إلى العريف بابتسامة خجلة، وطلبت منه أن يسمح لي بالنوم مع زملائه الجنود النائمين على الجدار، فأنا متعب ومبلل وأريد أن أغفو قليلاً. اضطرب قليلاً حين أشرت لهم بيدي... نظر نحوي بصورة ثابتة، هز لي رأسه موافقاً.

سمح لي دون أن يبتسم... وذهبت سريعاً لأخلع أمتعتي عن كتفي من دون أن أفهم شيئاً مما كانت تقوله العيون... عيون الجنود في الموضع، وقد أخذت تتلاقى مسرعة في ما بينها.

وضعت أمتعتي على مقربة مني، واتجهت إلى المجموعة النائمة. اقتربت منهم، نظرت إليهم بسرعة ثم قلدتهم في نومتهم.

انطرحت بملابسي المبللة على الأرض، بحذائي أيضاً، سحبت قليلاً من البطانية المرمية على الجندي النائم قريباً مني، ووضعت رأسي وجزءاً من كتفي على الجدار، ووضعت ركبتي قريباً من بطني مثلما لو كنت مقرفصاً.

لم تكن مريحة هذه النومة، ولكن لم يكن ممكناً غيرها. عليّ أن أنام مثلهم كي أستطيع سحب بعض من البطانيات على جسدي. كان وجه الجندي النائم قريباً مني إلى الجهة الأخرى، غير أن قدمه كانت قريبة من قدمي، خارجة من البطانية بحذاء أسود وجوارب خضراء فاقعة. سحبت بعض البطانية منه ببطء شديد كي لا أوقظه. ما بقي في ذهني هو هذا اللون الفاقع للجوارب الخضراء التي كان يرتديها هذا الجندي النائم بالقرب مني، والذي شاركته بطانيته.

كنت يافعا جداً، أتعلم الحياة بدقة شديدة. وربما كانت لتلك الشكليات قيمة كبيرة في نفسي، ذلك الوقت، أسخر منها الآن.

قلت: كيف استطاع هذا الجندي أن يتقبل هذا اللون من الجوارب مع بنطلون كهذا الذي يرتديه؟ هذا اللون استفزني حقاً، كان لوناً فاقعاً. وقد ضرب في مخيلتي عميقاً.

أمضيت الليل كله، وأنا أغفو وأصحو على صوت القصف والانفجارات. كنت أسمع الصيحات البعيدة والنداءات، صور كوابيس الحرب والموت وهي تختلط مع أصوات الجنود الأحياء. وعلى صوت المورس القريب مني، مضيت بعيداً في أحلام حزينة مربكة. رحت أغفو وأصحو مرة بعد مرة، وما بقي عالقاً في ذهني حقيقةً هي صورة الجوارب الخضراء التي كان يرتديها هذا الجندي النائم بالقرب مني، والذي لم يلتفت نحوي كي أرى وجهه. لم يتقلّب، لم يتحرك، لم يهتز، لم يشخر، لم يقل شيئاً، لم ينتبه لوجودي أساساً.

كلما كان الليل يمضي، كان الفضول يستبد بي كي أعرف وجه هذا الجندي بجواربه الفاقعة، غير أنه لم يتحرك أبداً.

في الصباح فتحت عيني. كان الضوء يغمر الموضع.. والقصف هدأ تقريباً، والجنود يمرون من أمامي ويتناقشون في ما بينهم. أما هذا الجندي بجواربه الخضراء فلم يكن يتحرك أبداً، لا هو ولا الخمسة الآخرون الذين ينطرحون على جدار الموضع ويتشاركون البطانيات فيما بينهم. كل شيء كان ينطق ويتحرك، وهذه الأجساد التي تقابلني لم تكن تتحرك مطلقاً، بعد دقائق امتدت يدي رغما عني نحوه، هززته قليلاً.

ـ يا أخ..يا أخ.

لا صوت ولا حراك.. سحبته قليلاً ليصبح وجهه بمواجهتي تماماً.

كما لو كان قد غفا منذ قليل، وجه صامت لا ينم عن أية حركة. وجه شاحب قليلاً، عيناه مفتوحتان نصف فتحة، وفمه فاغر تقريباً، شعره الأسود منسدل على جبينه، كان في العشرين من عمره.

نهضت. كاد الفزع أن يقتلني، صرخت محتجاً: لماذا جعلتموني أنام مع القتلى الليل كله؟

قال العريف: خشيت أن أقول لك هؤلاء شهداء، فترتعب وأنت في تجربتك الأولى مع الجبهة.

رؤية جندي ميت أكثر رعباً من موتنا نحن. موتنا نحن لن نراه أبداً، غير أن هذا الوجه يذكرنا بنهايتنا نحن وفنائنا. يذكرنا بلغز الحياة، مثلما يذكِّر وجه طفل يولد للتو بلغز الحياة.

أهكذا ننتهي نحن أيضاً، مثل سر متكبر أو فكرة مثيرة للرثاء، قلت في نفسي ما هي الأشياء التي يأتي بها هؤلاء الرجال في موتهم؟ لا فدية للغفران، ولا سبيل للتوبة. إن وجه هذا الجندي الشاب لا يفضح فقط الحادثة الشنيعة لوجودنا، فلو كانت هذه التراجيديا تتعلق بالموت، لما كانت تحتاج هذا التعليق كله.

ولكن كيف يتحول موتنا إلى اختراع خيالي؟ كيف يتحول هذا القبر المفتوح الذي يفزع إلى ظل عميق من حياتنا، فننهض أمامه بصورة طقوسية؟ إنه ظل عميق لوجودنا، ظل عميق يتكئ على الجدار ينتظر الرفش والمعاول كي ندفنه، أن نموت... هذا الأمر لا يفزعني، لكن نادراً ما تتحول هذه المعرفة إلى شيء نفكر به ثم نستنكره.

لماذا يموت هذا الشاب هكذا من دون حداد، هكذا مثل كومة مرمية على رف مغبر؟

هذه الوجوه المنطفئة لم تنفذ مطلقاً إلى عالم أليف تعرفه. وهؤلاء الذين ينتظرون موتهم، لم أكن مخطئاً: لقد ابتسموا لي لأنني بعد قليل سأكون مع هؤلاء الشباب ميتاً أيضاً. رويداً رويداً ببلاهة وصبر سأفغر فمي مثل أي ميت آخر، أنتظر الحفرة والرفش والمعاول. ■

أرسل لك بعض الصور من بغداد الحالية.. طبعا تمثال أبو جعفر المنصور ونصب المسيرة قد هدمهما الإسلاميون..

الكاميرا..هي لـ زياد تركي.

Attachments:
001.JPG(1MB)
002.JPG(862KB)
003.JPG(896KB)
004.JPG(818KB)
005.JPG(876KB)

«هنا بغداد» – زياد تركي

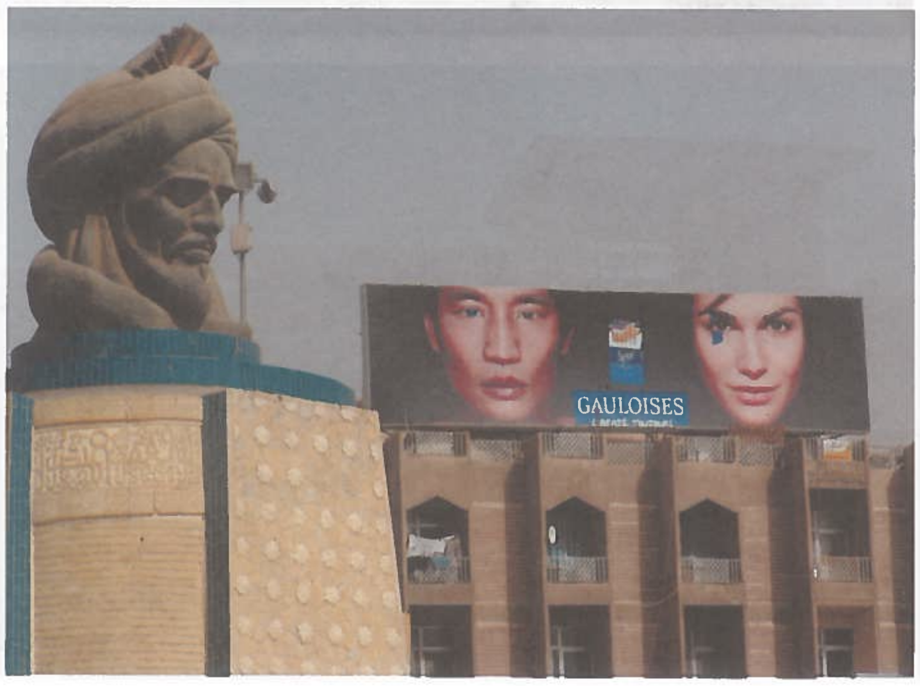

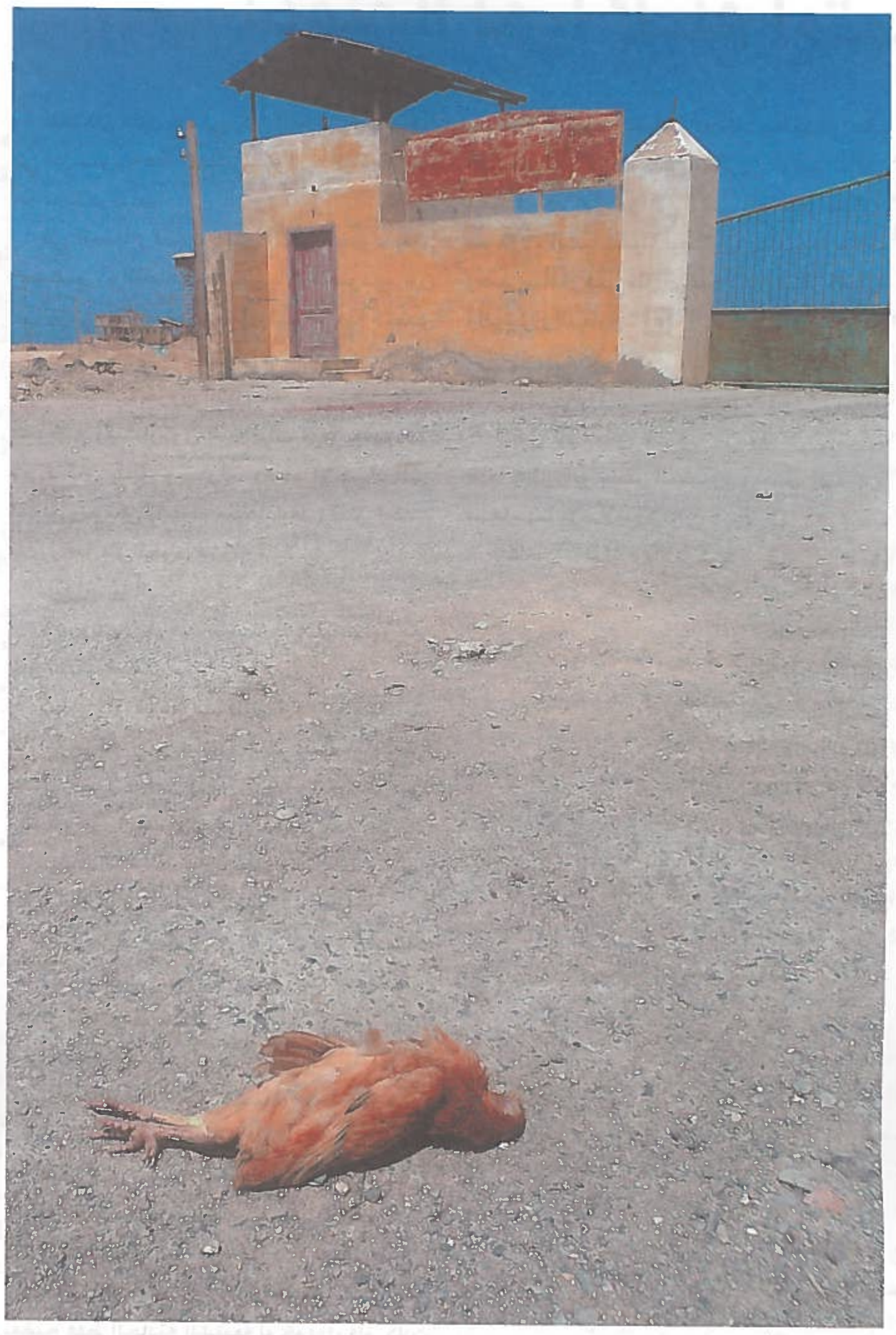

شركة يعني قبيلة... يعني أطر مرجان

«فوق النخل فووق، يابا فوق النخل فووووق
مدري لامع خدك، يابا بدر القمر فووووق
والله ما أريده... وباليني بلوى... آآآآآه»

أنا الآن فوق صخرة قرب حدود السودان. أسمع إلهام المدفعي وأعرّض صدري للريح. حولي بيض بلا معنى، وصعايدة يقولون Good evening, sir. الشعاب بحذاء ممشى طوبي على بعد خطوات من سريري. وراء الماء اللؤلؤ ساحل «تهامة». وقت الغروب يظهر غزل البنات الزهر بين السماء والبحر. يمررن اثنين اثنين. شعرهن مبلول وعلى أقدامهن الرمل. الشمس صبغت جلدهن. Bitte – يقلن، إذا ما تقاطعت سككنا – أو Buongiorno. فأتساءل إن كنّ فعلاً سعيدات. لا أكاد أغفو حتى أطالب بالقهوة بعد منتصف الليل.ـ Reception-good-morning-may-i-help-you . هكذا في نفَس واحد، بنبرة قناوية. وعلى الفرش الناصع تذكارات الوحدة. ماذا يجعل التدوين صعباً إلى هذا الحد؟ لكنني الآن فوق صخرة بعيداً عن وادي النيل. والشروق عصير برتقال وأنا أستعيدُكِ.

في «القصير»، على البحر الأحمر، سبعة ألوان للهواء. سبعون نوع سمك غير البوري والبلطي. شمس واحدة تقدح. وثلاثة تجليات لغرامِكِ... أتذكر. جنات اصطناعية بين الأسفلت والخلجان. سيقان السويسريين وسجائر نمساوية، ثم أنابيب الغطس كأنها تتمايل فوق المحار. حبيبتان تقولان صلاة قبل الأكل، بصمت ورع، في المطعم الخلفي. وعلى رصيف البازار، طابية محمد علي أسفل العشوائيات. كل الهيئات العمومية على أسماء شهداء.

كلما سألت عن أصل نزوح الصعايدة، حدثوني عن شركة الفوسفات حيث قطارات منمنمة تخرج من المناجم، من بطن الجبل مباشرة إلى الفلك المرصوص. العباب صياد منفي، أبعدته البيئة والسياحة عن مائه الأرجواني. فيغلو السمك. وعلى أرض الشركة التي ذوبتها الخصخصة بين الغبرة والمعاشات، رأيت خراباً أصفر في مدينة الأشباح. المعمار الإيطالي وإطارات الحافلات منثورة من أمامه بغير حساب. كل شيء متروك مثل «جبل صهيون الخرب، الثعالب ماشية فيه» ـ هي الأخرى منعوا صيدها، فعاثت

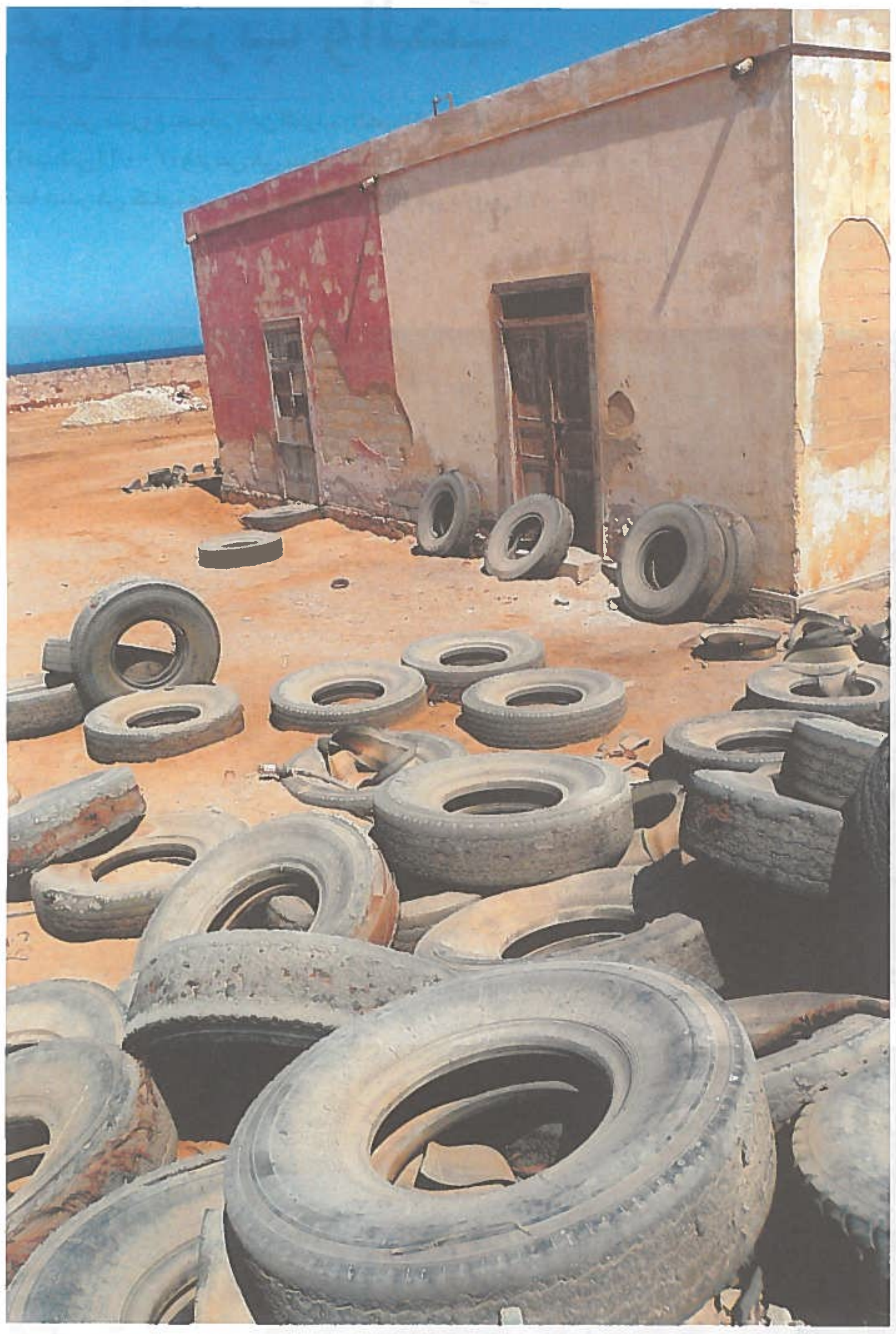

يوسف رخّا

تأكل الدجاج ـ البيوت والمكاتب، الشاطئ وملعب الكرة ومحطة البنزين... حتى بيت القسيس والسيارة المركونة خارجه، ثم جلبة عمال البناء: أسى هجرِكِ ينفث من كل شيء.

جسلنا قبالة «سيدي عبد القادر الجيلاني» ـ ضريح آخر مزور، فالشيخ في بغداد ـ نشرب الشاي المسكر ونغني للشمس. فرق كبير جداً، في القصير، بين الفيء والشمس. قالوا هناك قصايرة سبقوا الصعايدة بجيلين، وإنَّ أصلَ البلد من نسل «الزبير بن العوام«. هكذا يدعي أولاد «عابد» ـ قالوا ـ وعلى العموم جهزوا لك قعدة «جَبَنَة» لتسألهم بنفسك. فنزلنا إلى حي «العوينة» آخر النهار. كان الضوء الناري يسلم نوباتجيته للريح. على الكليم فحم متوهج، وقبائلي أسمر يحمص حبات البن والهال ثم يطحنهما مع القرنفل والزنجبيل، قبل إضافة الماء الساخن في إناء كالكرة بفم مخروطي.

حين تمتلئ الفناجين سيوقف الحديث ليشهق: الفاتحة. فنقرأها بسرعة قبل أن نكمل حديثنا. لابد من تناول عدد فردي من الفناجين ـ هكذا أخبرني العبابدة ـ لأن الله فرد، مثلاً؟ واختلط الضحك بالحكايات. مع انحدار الشمس أدركت أنهم فقدوا كل شيء يجعلهم قبيلة: البهائم ودروب الصحراء واللهجة العربية التي تخصهم، حتى ملامح الوجه والزي المميز. لم يبقَ لهم ـ فكرت ـ سوى أسماء البطون وإناء «الجبنة»، والذكرى الباهتة لوقت ـ مثل نعيم شركة الفوسفات ـ كانوا يتبادلون ألفاظاً أخرى ويقودون الغنم إلى الجبال.

غزل البنات في السماء من فوق صعيدي يبيعه، باللون نفسه. وضحكات العبابدة لا تزال في أذني. في الطريق إلى جنة إقامتي كنت أردد إلهام المدفعي وأستشعر الرطوبة الساقطة في الهواء. الجو أفضل، مع ذلك. ولا شيء أجمل من بعد وادي النيل. مشيت إلى الشعاب. البحر ساحر وأنتِ لستِ معي. ▣

أيّار/مايو ٢٠٠٧

شكر خاص للأستاذ شرقاوي عمارة، أخصائي الصحافة المدرسية في مدرسة «جمال عبد الناصر الإعدادية المشتركة» والكاتب في جريدة «أخبار البحر الأحمر»

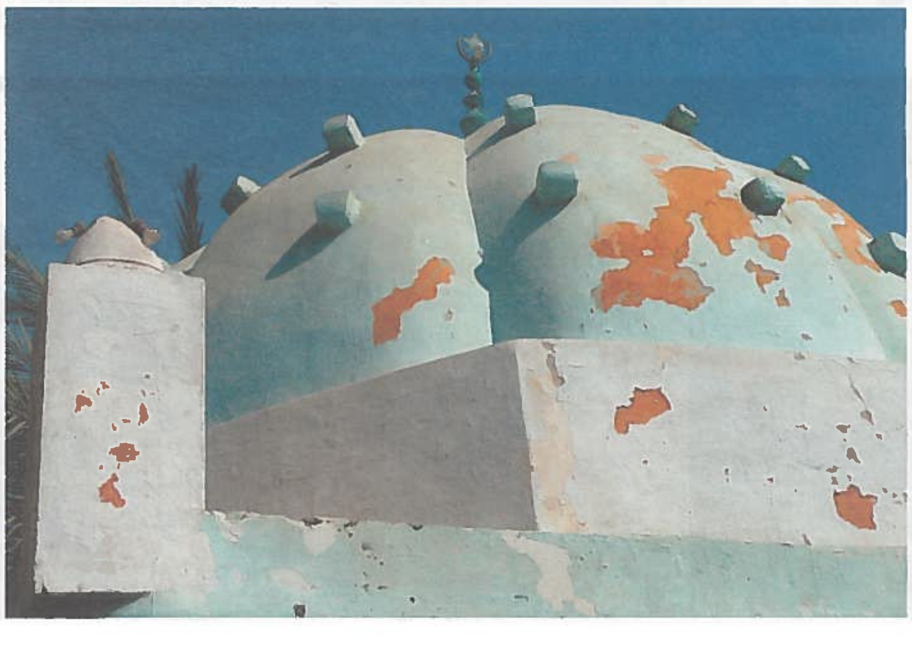

فؤاد الخوري

عن الحرب والحبّ

عناصر من مشروع بعنوان «عن الحرب والحب» انتج خلال تموز (يوليو) وآب (أغسطس) ٢٠٠٦، وعرض في بينالي البندقيّة / فينيسيا، صيف ٢٠٠٧، كما صدر في كتاب عن منشورات Intervalles في باريس (٢٠٠٧)

الخميس ٢٧ تموز (يوليو)

استيقظت دامعاً عند الفجر. كانت تغطّ في سبات عميق. كيف يمكنها ذلك؟ رُحت أفلّي كل كلمة قالتها البارحة، أريد أن أفهم كيف انقضى الحبّ. أريد أن أطرح عليها كل تلك الأسئلة التي تعبر في رأسي. تجيب عن بعضها، وتتفادى بعضها الآخر. أحاول أن أحشرها، أن أخترع سيناريوهات وأجيب نيابةً عنها، تتملّص وتحتويني بالعناق والقبل.

كم أنيق أسلوبها في الحضور، في مواجهتي بدلاً من الهروب.

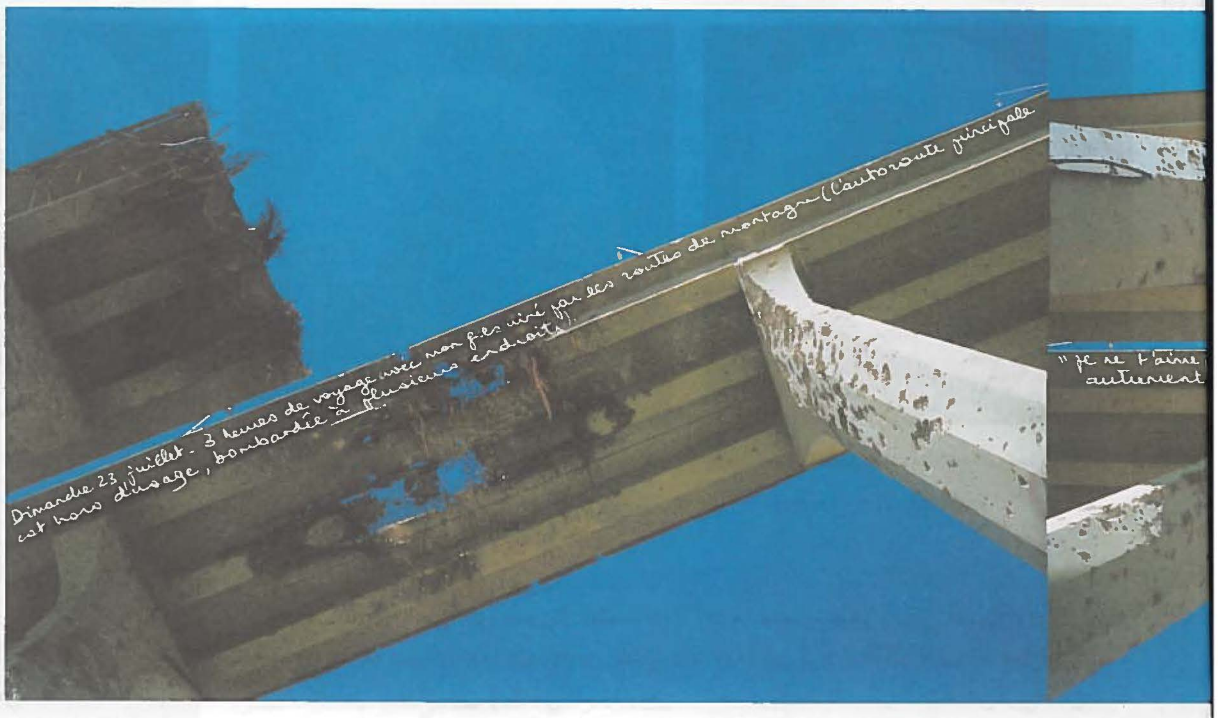

الأحد ٢٣ تموز (يوليو)

رحلةٌ ثلاث ساعات مع ابني البكر على طرق القرى الضيقة (الطريق السريع تعرّضت للقصف في أماكن عدّة)

«لا أحبّك كما تريدني أن أحبّك» لا تنفك هذه الجملة تدور في خلدي. ماذا لو قلناها بطريقة مختلفة: «أنتَ لا تحبّني كما أريدك أن تُحبّني».

السائق يقود بسرعة، يفعل ذلك جيداً، ويلزم الصمت طوال الرحلة، حتى الجزء الأخير من الطريق قبل الحدود. هنا يطلق لسانه ولا يعود يتوقّف عن الكلام. عندما وصلنا سألته عن سبب هذه الثرثرة المفاجئة. أجاب: «أردت أن ألهي ابنك عن رؤية السيارات المتكلّسة على جانبي الطريق».

الاثنين ٧ آب (أغسطس)

عندما استيقظتُ لم تكن هنا. في مكانها على السرير رسالة قصيرة: « حبيبي، لا تسعَ بعد الآن إلى الحصول على أجوبة. سأشرح لك إذا أردت، لكن لم يعد بوسعي أن أهدئ من قلقك. التفكير في المستقبل يزيدني عدائيةً. دع الوقت يفعل فعله».

7 août - Au réveil, elle n'était pas là. A sa place, un mot d'elle : « Mon amour, n'essaye plus d'obtenir de réponses. Si tu veux des explications, je t'en donnerai, mais je ne peux pas calmer ton angoisse. Penser le futur ne peut que me rendre agressive. Laisse faire le temps. »

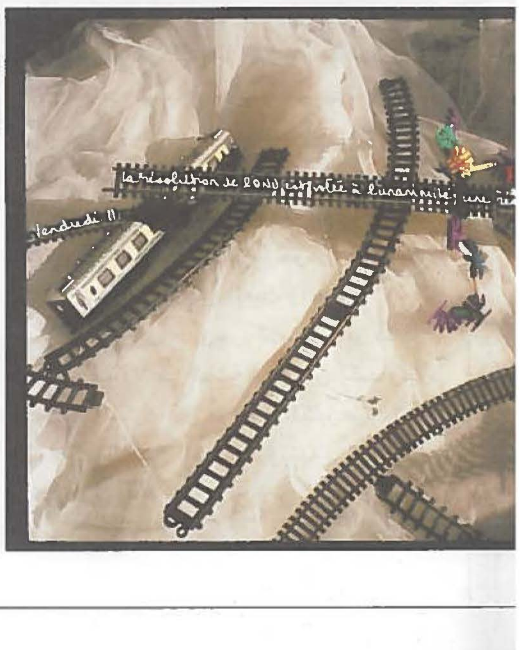

الجمعة ١١ آب (أغسطس)

تم التصويت على قرار الأمم المتحدة بالاجماع، قرار إضافي لن يُطبّق. على قناة «سي.أن.أن»، اسرائيل تعلن احترامها القرار، لكنّها تكثّف عملياتها العسكرية. لقد حُدّد يوم وقف القتال: الاثنين المقبل عند الساعة الثامنة مساءً. لمَ لا يتوقف العدوان على الفور؟ تقول: «أفكّر بهؤلاء الذين سيموتون يومي السبت والأحد».

وجوه أحن إلى رؤيتها مرّة أخيرة

بشير مفتي

سبهان آدم – تفاصيل من احدى لوحات معرضه «أجساد سرمدية»، «مركز رؤى للفنون» – عمّان ٢٠٠٧

أعرف عمي علي منذ كنت في الثالثة عشرة. كان يحرس مستودع السيارات في الحي. ويرتدي البدلة الشهيرة شنغاي الزرقاء التي كانت ترمز إلى خصوصية سكان الجزائر العاصمة، منذ فترة الاستعمار تقريباً. رأيته دائماً بالملامح نفسها تقريباً، التي لم تتغير كثيراً على مر الزمن. كان رجلاً طيباً كما يقال عنه. رجل فحل عندما تقتضي منه المواقف ذلك. وكثيراً ما دافع عني أنا شخصياً في تلك الفترة البعيدة، عندما كنت طفلاً أتعرض لمضايقات من طرف بعض الأطفال المتشردين الذين كانوا كما أذكر كُثراً. فعند كل منعطف تقريباً، تجدهم جماعات صغيرة تتكون من ثلاثة أو أربعة أفراد. يهجمون عليك ولا يكتفون بأخذ ما عندك من نقود، بل يعتدون عليك بالضرب والاهانة! كان عمي علي حريصاً على أن يدفع عني مثل هذا الظلم وعندما أشكره كان يجيبني: «أنت في منزلة ابني وسَلَمْلِي على والدك الشيخ».

كنت في السنة الثالثة ثانوي، وعلى أهبة امتحان الباكالوريا. كنت متفوقاً في الأدب العربي والفلسفة، أما في العلوم والجغرافيا والتاريخ فكنت أمياً تقريباً. وفي تلك الفترة تعرفت إلى سمير الذي كان يصغرني بسنتين. كان شاباً لطيفاً يسكن في حي شعبي، أذكر أنّه طلب مني مساعدته في بعض الدروس، ولم تكن تظهر عليه الثقة بأن يكون التعليم هو هدفه بالفعل. لكن والده كان بائع التذاكر في حافلة نقل عمومي، يحرص على أن يراه حاصلاً على تلك الشهادة التي كنت أعرف ماذا تعني لآبائنا الكبار في السن والذين حُرموا من التعليم في فترة الاستعمار السيئة الذكر. لهذا وافقت على مساعدته، وكان ذلك بمثابة فرصة لأتعرف إليه بشكل أفضل. كان يحب الغناء، خصوصاً أغاني الراي التي كان يحفظها عن ظهر قلب. وكان يعشق فتاة قبائلية تدرس في الثانوية، اسمها تاسعديت، الا أنها لم تكن ترى فيه أكثر من زميل في الدراسة.

وكان يحكي لي عن كل ذلك بشغف ثم بدأنا نتسكع معاً في الشوارع، ولم أشعر بأنّ كوني أكبر سناً منه عامل مؤثر. فلقد كانت حكاياته عما يجري في حيّه ممتعة للغاية، وقصصه تثير فيّ سعادة عميقة. أصبحنا أصدقاء بالفعل إلى درجة أنّنا صرنا نلتقي كل يوم تقريباً، ونتحدث في كل شيء. وأذكر أنّه تحدث لي عن ضيق المعيشة مرةً، وأنه يفكر في الالتحاق بالجيش أو الشرطة، فحذرته من ذلك وأنا أصرخ «أي مستقبل في أن تكون عسكرياً؟». لكنّ سمير ضحك وقال: «إلى جانب الراتب المحترم، هناك الرتبة يا صديقي. في هذا البلد ليحترموك عليك أن تحمل سلاحاً». قالها مازحاً، لكن كان يبدو مصمماً على خوض التجربة لاحقاً من دون تردد.

دخلت الجامعة عام ١٩٨٩ أي مباشرة بعد أحداث أكتوبر ٨٨ الشهيرة التي أدّت إلى تغيرات سياسية في البلاد. وكنت بين الشباب الذين خرجوا عفوياً ضد النظام حينها، في موجة كاسحة كُسر فيها كل شيء. المباني الحكومية وكل مكاتب الحزب الحاكم يومها، ومراكز الشرطة التي أُطلق عليها عبارة الجزائريين الشهيرة «حقرة»... وفي أول يوم تعرفت إلى خليدة، سجلنا معاً في كلية الآداب، كانت فتاة محجبة لكن غير ملتزمة. ترتدي اللباس الديني فقط لأنّها تسكن في قرية بضواحي العاصمة (توجد قرى كثيرة في ضواحي الجزائر العاصمة). ولأنّ عائلتها خيّرتها بين الحجاب والدراسة فرضخت للأمر الواقع. يوم تعرفنا إلى بعضنا بعضاً، تجاذبنا أطراف الحديث عن ميولنا الأدبية خاصة عن جبران خليل جبران وطه حسين. وكانت قد قرأت كل ما كتبه إحسان عبد القدوس تقريباً. أخبرتها حينها بسر، هو أنني كنت أقرأ عبد القدوس وأنا في بداية مراهقتي لأقوم بعملية الاستمناء، فضحكنا ضحكاً طويلاً ولامبال.

لم أشعر بالقرب من فتاة كما شعرت نحو تلك الفتاة التي كنت أجلس معها في حديقة الكلية، ونجرّب تدخين سجائرنا الأولى، وحتى بعض المداعبات الخفيفة. وأذكر أنني أعرتها من مكتبة أخي بعض روايات نوال السعداوي وغادة السمان، فبدت كما لو أنها تكتشف عالماً جديداً، تدخل فيه بكل قوة. حتى أنّها جاءت مرّةً إلى الكلية من دون حجاب، وقالت لي: «من اليوم لن أكون إلا أنا». خفت عليها من عقاب العائلة الذي لا يرحم لكنّ تصميمها كان كبيراً للغاية.

تعلمت من تلك الفتاة أشياء كثيرة في ظرف قصير جداً. حتى قُبلتي القبلة الأولى، الجنونية والطويلة، التي أخذتها من شفتيها العذبتين. لكن لم افهم قط لماذا لم اشعر نحوها بعاطفة الحب المجنونة. بقيت رفيقة درب وحلم، نتقاسم كل شيء، ونتقاطع في أحلام كثيرة.

لم أتصور قط أن يفقد عمي علي ملامحه فجأة، وعقله كذلك...

لقد كبرت في الحي على صورته. بشاشته، وطيبته، وعذوبة حديثه عندما يتحدث عن الأشياء المشتركة بين الجزائريين (ماضي الجزائريين الغريب والغامض وحتى المبهم). وعندما صرت استطيع أن أدعوه إلى شرب قهوة، وتذكيره بأنه كان يدافع عنّي ضد أولاد الشوارع، كان يعتذر ويقول لي «حياتي ستبقى هنا بالقرب من هذا المستودع»، وكان يطلب مني أن اقرأ له رسائل ابنه الذي يعمل في مصنع الحجار الضخم والكبير في أقصى شرق الجزائر، ولا يزوره إلا مرتين في السنة.

خلال سنوات الدم العصيبة، غابت رسائل ابنه وغاب صوته في الهاتف. وأصبح عمي علي كالمجنون تقريباً لا يردد إلا اسم ابنه صباحاً ومساء. وعرفنا بعد فترة أنّ ولده ذُبح في هجوم إرهابي على المصنع ليلاً، حيث كان يقضي أمسياته مع مجموعة من الأصدقاء.

من يومها، لم يذق عمي علي طعم النوم، ومن يومها لم يعد ذلك الرجل الهادئ الذي نعرفه. لقد تحول شخصاً آخر ولم نتصور قط أننا سنعثر عليه في إحدى الصباحات نائماً نومته الأبدية راحلاً عن دنيانا هذه بحسرته الكبيرة.

قبل أن ينتهي العام الدراسي، قرر سمير ترك الدراسة وهو يؤكد لي «لا... لم أخلق لهذا؟». و«لو كان هذا البلد بلداً لاخترت الغناء، قل لي بصراحة أليس عندي صوت جميل؟»... وبعدها توارى عن ناظري تقريباً. فلم أعد أراه أو أسمع عنه. لكن كنت متأكداً من أنّه التحق بالجيش، فلا أحد يختفي بتلك الطريقة العجيبة. حتى والده قال إنّه لم يترك له أي رسالة تدل على مكانه. عرفت ذلك من زميل في الدراسة كان يعرفه جيداً.

نسيت أمره بالكامل بعد دخولي الجامعة بصخبها وفوضاها السياسية والثقافية، حتى كلمني سمير مرة بالهاتف، وقال لي: «يجب أن نلتقي في السهرة». فرحت بسماع صوته من جديد. كانت أرضية العنف تعبد للقتل في تلك الأيام، وكانت الأهداف الأولى هي رجال الشرطة والعسكر بشكل خاص. لم أبال بذلك، وأنا أعده باللقاء ليلاً بالقرب من الثانوية التي درسنا فيها. كنا في شهر رمضان على ما أذكر، ولا أدري حتّى الساعة ما الذي جعلني أتردد في الذهاب إلى الموعد أصلا، على رغم اشتياقي لرؤيته ورغبتي في الحديث معه من جديد. وأتصور الآن أنّه كان قراراً صائباً أنقذ حياتي من القتل. فلقد قُتل سمير في تلك الليلة عندما حاصرتهم هو وبعض أصدقائه مجموعة من الإرهابيين يرتدون لباس الشرطة، فظن أن بطاقته العسكرية ستنقذه، لكنّ الكشف عن هويته كان سبباً في قتله بطريقة بشعة للغاية.

لم أتمكن من حضور جنازته خوفاً من رؤيته ممزقاً بذلك الشكل. ولسنوات شعرت بتأنيب ضمير غريب يمزقني من الداخل، ويجعلني ما أن أنطق اسمه حتى يقشعر بدني وأرتعب، وأخاف حتى من تذكر ما حدث له. وأفكر أنني نجوت بأعجوبة من مصيدة سقط فيها كثيرون أيامها.

الغليان والفوضى السياسية مزّقا الجامعة تقريباً على يد جماعات كثيرة... الا أنّ الطلبة التابعين «للجبهة الإسلامية للإنقاذ» هم الذين حكموا الجامعة بقوة. كنت بحكم أنني أحاول أن أكون معارضاً للنظام بدوري أعرف الجميع، القبائليين وبعض الشيوعيين والمتدينين بطوائفهم المختلفة. كان يدرس معي شاب قيادي من الحركة الدينية الجديدة. (سيسجن بعدها أربع سنوات، ثم يطلق سراحه. كنتُ ألتقيه في فترة الخروج تلك عابراً فيقول لي «أنت تعمل صحافياً» فأجيب بـ «نعم» وأنا خائف أن أكذب عليه فيرد علي «لا تخشاني فأنا أعرفك جيداً، لقد درستَ معي. أنت ضد هذا النظام الطاغوت الحالي». وبعد شهر سأراه على شاشة التلفزيون يحكي عن جريمة اقترفها، ثم سأعرف أنه أعدم). وهذا الشاب قالي لي: «لن نقبل أن تدخن النساء في الجامعة». وكان يقصد خليدة. حاولت أن اشرح له أنها حرة في حياتها، لكنه قال بتصميم «نعرف كيف نؤدب مثل هذا النوع».

حاولت إقناع خليدة بأن تقوم بكل ما تود فعله خفية، وأن ترتدي الحجاب من جديد لأنّ العدو هذه المرة ليس العائلة ولكن هؤلاء. لم تسمع نصائحي، وأذكر أنّه في صبيحة سوداء، سمعت خبر قتلها على حاجز مزيف مع ثلاث فتيات أخريات لم يكنّ يرتدين الحجاب...

ثلاثة وجوه من ذاكرة بعيدة. وجوه ما زالت ملامحها ترتسم في ذاكرتي. وجوه راحت ضحية شيء لا اعلم ما هو غير العبث والجنون، وحالة فقدان العقل والروح. وجوه لم يذكر خبر قتلها لا في الصحف، ولا على شاشة التلفزيون. لكنّها وجوه باقية فيّ أتذكرها كل مرة مع الكثير من الأسى والخوف والحنين الغريب لرؤيتها مرة ثانية أو مرة أخيرة.

Let’s do something!

نجوان درويش

في تموز الماضي – بعد يومين على بدء حرب لا أحد كان يعرف وقتها إلى أين هي ذاهبة بالضبط قطعتُ الطريق نحو مطار اللد الذي يسمّونه مطار «بن غوريون».

في سيارة أخرى – للتمويه– قطعت شريكتاي في الرحلة الطريق إلى نفس المطار مع أدوات التصوير. اتفقت مع جيسيكا ونيرا ألا نتحدث قبل الصعود إلى الطائرة. إذ أن أي شيء قد يجلب «الشبهات» ويعتبر قرينة إدانة في مطار مجرد «وجودك» فيه شبهة.

التوتر واضح بين موظفي الأمن والتفتيش أسوأ من العادة، لكن متوالية الأسئلة الغبية تتكرر:«هل ساعدك أحد في توضيب الشنطة؟ أعطاك هدية؟». أقاطع المحققة «لا تقلقي عندي فوبيا ولا أسمح لأحد بالاقتراب من حقيبتي». الجواب طمأنها لأنه أرسل إلى لاوعيها رسالة تقول «أنا مريض نفسي مثلكم وبالتالي لا داعي لإزعاجي أكثر».

كان الوصول إلى باريس، في موجة الحر التي ضربت أوروبا في ذلك الشهر، أشبه بالوصول إلى الجحيم. من الحر ودوار الجو لاحت في رأسي صورة أني «مَحْرَمْ» وأن على جيسيكا ونيرا الآن ارتداء عباءاتهما السوداوين قبل أن نصعد في «الروفر» مع السائق الباكستاني.

جيسيكا تظن أنها مخرجة وأنها حتماً ستصل بأفلامها– ونحن معها– إلى سجادة «كان»، ونيرا تظن أنها واحدة من الموكلات بإيقاظ العالم من غفوته الاستهلاكية، وأنا شخص لا يفرّق كثيراً بين يقظته ومنامه، ولهذا من الممكن أن يتورط في أي شيء– لا سيما مع بنتين جميلتين تحتضناك بحرارة بين كل وداع ولقاء، مهما كان الوداع قصيراً– ونحن الثلاثة في طريقنا لتصوير فيلم تسجيلي.

أما السيناريو غير المعلن فهو موعدي مع م.ر التي ستجيء من مدينة أوروبية قريبة.

م.ر – التي قالت لي ذات مرة ونحن نمشي في شارع ببرلين، قرب مشرب على القناة التي تتهدل عليها أشجار لا أعرف اسمها، أن علاقتنا تشبه علاقة سارتر وسيمون دو بوفوار! لم تكن م.ر قادمة فقط للقائي كما حسبت؛ لقد كانت قادمة «لتصنع شيئاً» للبنان– هكذا قالت لي ولم أفهم كيف ستصنع ميم راء شيئاً للبنان. ميم راء وأصدقاؤها الذين تنادوا بالايميلات التي تقول Let’s do something في الحقيقة ذكروني بتلك المشاريع الصبيانية التي كان يقيمها الواحد مع رفاق طفولته. شيء جميل لكنه صبياني وفيه استعراض ويصعب احتماله في هكذا حر. رأيت فيه أيضاً ضعف «النخب» الفنّية العربية وركاكتها، خصوصاً «نخب» عرب المهاجر وأبنائهم وبناتهم الذين يعتقدون أنهم شقوا طريقاً مختلفاً في الحياة.

في بريدي الالكتروني، الذي أفتحه على عجل من مقهى إنترنت في الشارع القريب من الفندق، أجد بعض البيانات والايميلات ضد العدوان. صديقة مبادرة من رام الله تكتب للمشتغلين في الفنون داخل فلسطين مجموعة أفكار وتقترح القيام بشيء. يرد عليها أحدهم في ايميل آخر «we are ready».

من بيروت إيميل يقترح كتابة ايميلات لأصدقاء في بيروت لنشرها في جريدة «الأخبار» التي كانت وقتها في مرحلة الانطلاق. ايميلات أخرى أمر عليها سريعاً... وأكتشف معها أنني أيضاً من الذين تشملهم نداءات Let’s do something!

قررت «مقاطعة» جميع الإيميلات. لم أحلل السبب، الأرجح لشعوري بالعجز وربما نكاية في سيمون دو بوفوار(م. ر)! أحياناً تكشف بعض الجمل المحكية أعطاب زمنها وبؤس المفاهيم السائدة، وجملة Let’s do something قد تكون الصياغة الـ «بوست مودرن» لـ «ما العمل؟». لكنها «ما عملِ» تفارق مفهومها القديم؛ نحو شكلانية استهلاكية، تعلن انحسار مساحة الفعل والدخول المريع إلى الكابوس.

كانت م.ر قد وصلت أخيراً بعد انتهاء المقابلات والتصوير وعشية سفر جيسيكا ونيرا وانفضاض أصدقائي الفنانين الفلسطينيين الذين كانت تجربتهم محور الفيلم. لست متماسكاً كما يحاول هذا النص أن يوحي، في الحقيقة لم يكن عندي شيء أكثر مما لدى جماعة Let’s do something، حتى أني فعلت أشياء أسوأ. مثلاً نشرت رثاء شعرياً حاراً لعباس بيضون وترجمت بيانات وعقّبت عليها بحماسات وشتائم وكنت أسهر في آخر الليل قبالة التلفزيون المفتوح على قناة المنار مندمجاً مع «دعاء الجوشن الصغير» الخ.

الـ CNN تعرض صوراً للضاحية الجنوبية بتشفٍ وقلة أدب. الحر لا يحتمل..الأخبار بالفرنسية لا تحتمل أيضاً. فرنسا هي ماما بالنسبة للبنان لكن ليس لكل لبنان، إنها ماما فئة دون أخرى.

وكوابيس من نوع جديد بدأت أحلمها نيابة عن أشخاص آخرين ناموا قبلي في هذه الغرفة، وربما تكون كوابيساً سقطت من منظفات الغرف وعمال الفندق.

ذهبت مع م.ر إلى مظاهرة «ضد الحرب / العدوان» أو «للتضامن مع لبنان».. في هكذا مطارح أتحول إلى هاملت يستشعر خيانات مستترة ويشم رائحة عفنة في أكثر الأفعال البشرية تذرعاً بالنبل. في المظاهرة– التي وجدتها غير لائقة بجريمة تدمير لبنان، والتي كانت بالكاد تغلق شارعاً كبيراً وتحوّل مجرى السير فيه– التقيت بأوليفيا زيمور التي سبق واتفقت معها على اللقاء هنا. أوليفيا فرنسية تعتقد أن قضية فلسطين هي رسالتها في الحياة وتدير بكفاءة مؤسسة (EuroPalestine). بعد المظاهرة ساعدنا أوليفيا وزوجها نيكولاس في حمل اليافطات. ركبنا الباص أربعتنا مع اليافطات وذهبنا إلى بيت أوليفيا الذي لم يكن يبعد كثيراً عن مكان المظاهرة. بيت جميل ليس من اليسير امتلاك مثله في باريس. أوليفيا وزوجها سيبيعانه خلال أيام ليحققا حلمهما بإقامة «بيت فلسطين» في باريس. «سنشتري شقة صغيرة لنا وللبنتين بجزء من ثمن البيت.. المهم أن يصير لفلسطين مكان نجتمع فيه ولا يستطيع أحد طردنا منه..» تقول أوليفيا التي بدت لي تروتسكية من طراز فريد.

تناقشنا مطولاً في فكرة «بيت فلسطين». من آليات التأسيس حتى قادنا الحماس إلى الخوض في التصميم الداخلي للمكان. شعرت بانتعاش لأول مرة رغم الحر الجحيمي والتعب والإحباط وحقيقة أن كل ما أملك من أدوات لا تستطيع رد الغائلة عن شجرة لوز أو جسر أو شباك أو حياة واحدة. حقيقة أني لا أستطيع «فعل شيء» للبنان!

بيت فلسطين افتتح في كانون الأوّل (ديسمبر) الماضي تحت اسم «مكتبة المقاومة» هذا موقعها الالكتروني: www.librairie-resistances.com ننزل في آخر الليل من البيت الذي كان لأوليفيا وقدمته بصمت ودون استعراض لأجل القضية التي تؤمن بها. وأفكّر بالذين هم أيضاً امتلكوا بيوتهم بصمت ودون استعراض، بسبب القضية التي يؤمنون بها!

في طريق العودة إلى الفندق فكّر نون دال وميم راء(تذكروا: علاقتهما تشبه علاقة جان–بول وسيمون) ببديهية مفادها أننا «سنفعل شيئاً» حين نصل إلى قناعة أن «قضايانا» تستحق أن نستثمر فيها، تستحق أن نقدم ممتلكاتنا بقناعة من أجلها، تستحق خساراتنا مهما كانت فادحة. وسوى ذلك ستكون «القضايا» بلا معنى والخسارات أيضاً بلا معنى.

سنة توشك أن تمرّ على وقوع شهر تموز. لم يصل نون دال و ميم راء بعد إلى الفندق...

Let’s do something? ■

هاشم المدني ـــ صيدا ١٩٧٠ (من مجموعة المؤسسة العربية للصورة)

أنا آسف!

زكريا محمد

◆ أنا آسف أن أقول لكم هذا. لا يوجد حل.

أنا آسف. لقد كنت موهوماً. تبعت ياسر عرفات على أمل ان هناك حلاً. تبعته، وتقبلت أوسلو بهذا القدر أو ذاك، لكنه كان وهماً.

كنت أريد أن يكون لابني وابنتي فرصة للعيش، ان يكون لهما مكان صغير تحت الشمس.

كنت أقول في نفسي: ليكن، دعوا هذا الشعب يعيش. دعوه يحصل ولو على عشرين في المئة من أرض أجداده كي يعيش عليها.

كنت أريد ان يتحول شعب مثل كل شعوب الأرض، أو اقل منها بقليل، لكن هذا كان وهما.

كان وهماً. كانت حماقة. كان خطأ.

لم يكن هناك أي إمكانية للحل. لن يكون هناك أي إمكانية للحل.

سوف يتحدثون عن السلام وعن عملية السلام، لكن هذا فقط من أجل أن لا تنفجر الأمور فقط. لا تصدقوا ذلك. لن يكون هناك حل.

لا تصدّقوا كبير المفاوضين ولا صغير المفاوضين. لن يكون هناك حل.

هم لا يريدون حلاً. هم ليسوا مستعدين للحل.

يقولون لنا: لقد أخذنا ثمانين في المئة من فلسطين. أما العشرون في المئة الثانية فسنأخذ نصفها. سوف نعطيكم أن تقيموا في مسطحات القرى والمدن، إلى ان نجد حلا لمشكلتكم.

هذا هو الحل المطروح. ولا حل غيره.

لا يحدثنني أحد عن الحل. لا أريد سماع الكذبة إياها. لقد صارت كذبة مقرفة.

لا يوجد حل.

الوحيد الذي كان يريد حلا، وكان بإمكانه أن يفرض الحل سمموه.

حولوه إلى «بلعزبوب» جديد ثم حاصروه، ثم سمموه.

انتهى... نقطة أول السطر.

من كان يريد حلا، يريده حتى نخاع العظام. يريده أكثر مما ينبغي، بصّقوا عليه وسمموه.

خدعني ياسر عرفات فجريت وراءه. جريت وراءه بصدق. ركضت نحو الماء. لكن لم يكن من ماء. كان سراباً. كان كذبة.

مات عرفات من دون أن يعترف أنه خدعنا، وخدع نفسه. لم يستطع أن يبق البحصة وان يقول: لقد خدعت. لم يستطع أن يحكم على عمره بأنه كان عمراً من كذب.

ظل حتى الموت يعتقد ان الحل كان ممكنا، لولا أنهم قتلوا رابين.

أما أنا فمواطن صغير، قادر على بق البحصة: لا حل.

بعد الآن لن أسمح لأحد بأن يخدعني. لقد كنت ساذجاً. كنت غراً.

وربما كان علي ان أفهم أن من يتخلى عن ثمانين في المئة من أرض وطنه لا يستحق العشرين المتبقية. هذا هو المنطق. وهكذا تعاملوا معنا: أنتم لا تستحقون العشرين في المئة!

لقد كانوا على حق. من يتخلي عن ثمانين في المئة من بيته، لا يحق له ان يطالب بالعشرين الباقية.

أنا آسف... ظننت أن الأمور يمكن ان تجري غير ما جرت عليه. كنت غراً. خدعني ياسر عرفات. وثقت به. وما كان علي ان أفعل.

أنا آسف. لا أستطيع ان أسير وراء ورثته المتخلفين عن الزمن، وعن الحقيقة، خمسة عشر عاما على الأقل. محمود عباس كان منسياً في بداية التسعينات. أو ربما في الثمانينات. لم يكن هنا عندما سمموا عرفات. المسكين لا يدري.

أما أنا فأدري.

أدري جيدا يا إخوتي.

لا يوجد حل.

لا يوجد للكلاب حتى ولا عظمة.

أنا وعرفات كنا كلابا نركض وراء عظمة. لكنهم لم يرموا لنا عظمة.

الآن أنا اكف عن الركض وراء العظام. لا أريد العظام. لا يوجد عظام يا إخوتي.

أنا آسف. لقد كذبت على نفسي. لقد كذب عليّ عرفات. لقد كذبت أنا وإياه عليكم.

ثم سمموه. أنا لم اسمم لأنني رجل صغير، صغير جدا. لكن لأنني بهذا الصغر أستطيع ان ابق البحصة. وأنا أبقها.

لا يحدثنني أحد عن حل. عن تسوية تاريخية. باطل الأباطيل. كل هذا قبض ريح.

أنا آسف، لا حل.

مر قرن من الصراع، وكانوا المنتصرين. بالسيف انتصروا، وبالسيف والسم تفاوضوا، وانتصروا.

سيكون هناك قرن آخر من الصراع، وربما انتصروا فيه لأنهم ما زالوا الأقوى. لكن ليس هذا أكيداً.

سيكون هناك قرن آخر.

سيذهب عباس، ويظل الصراع.

أنا آسف، لن أتنبأ لكم بالسلام. أعدكم بقرن آخر من الدم والدموع.

لست أنا في الحقيقة من يعدكم بذلك.

لا عشرون في المئة. ولا دولة ولا استقلال.

يوجد السم فقط والاغتيالات.

توجد الحرب.

لقد حاول عرفات وخسر. لقد توهم عرفات وسمم.

أنا ألآن بلا أوهام. انتهى. لم يعد لدي من أوهام.

في التسعينات استسلمت للأوهام. أنا الآن متخفف منها. أنا الآن بلا أوهام. أتوقع الأسوأ. أتوقع السم. أتوقع الاغتيالات. أتوقع الاجتياحات. أتوقع الطرد. أتوقع الدم. أتوقع الفجر المعتم.

أنا آسف

لقد كنت موهوماً

أنا آسف

لقد انتهى الوهم

أنا وعرفات كنا على خطأ

كان خطأ استراتيجياً

كان وهما كبيراً

كانت كذبة رهيبة

وأنا أريد ان اعترف لكم بذلك

إخوتي:

لا يوجد حل... لا يوجد حل.... لا يوجد حل! ■

في جنازة عرفات

رؤوف بن يحيى

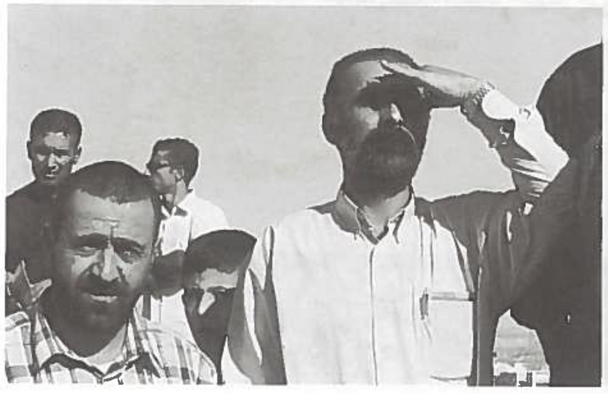

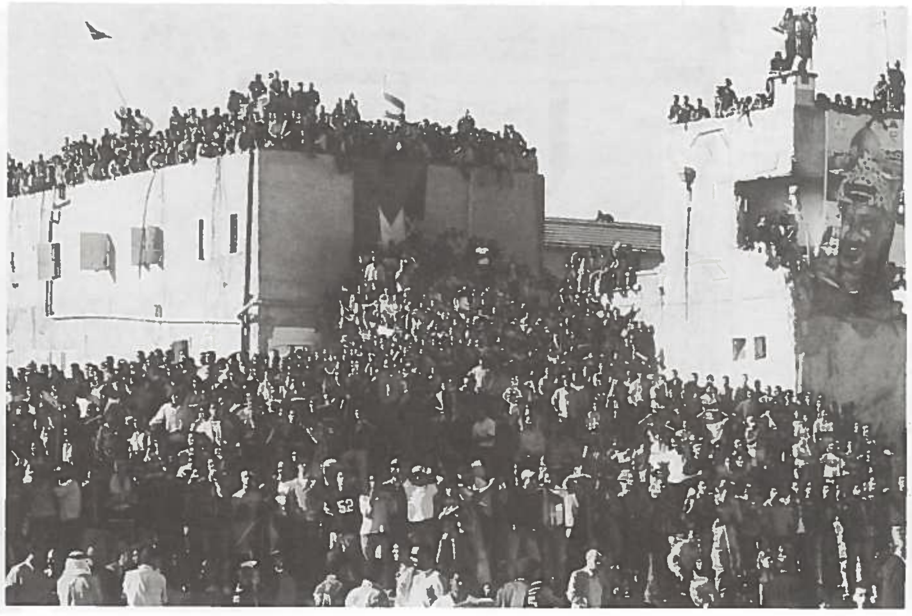

غزّة ذهاباً وإياباً

تيسير البطنيجي

عناصر من دفاتر السفر، أو المذكرات البصريّة التي سجّلها الفنان الفلسطيني خلال رحلاته بين فرنسا حيث يعيش ويعمل حالياً، ومدينته غزّة، خلال الفترة الممتدّة من ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٦.

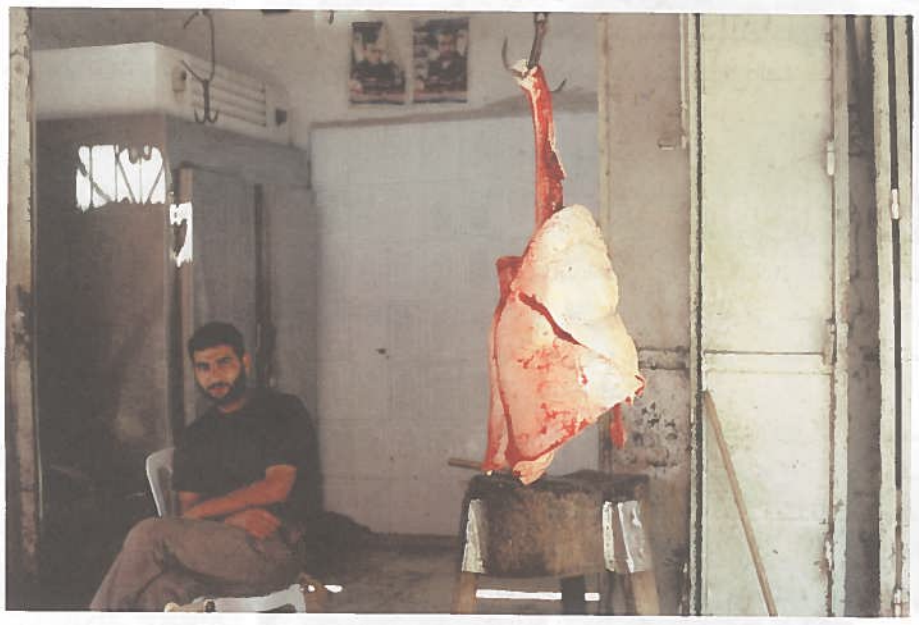

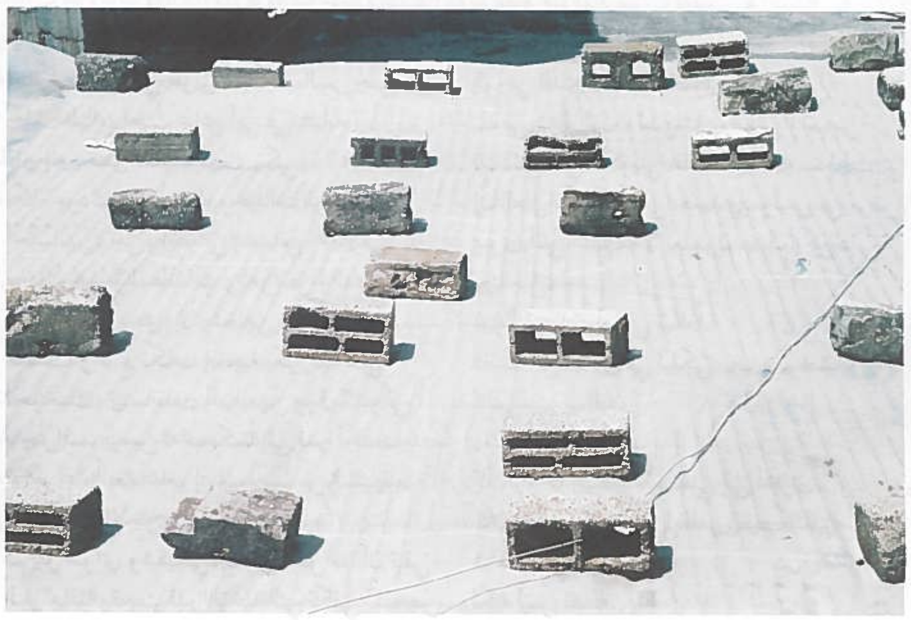

نوال العلي

مقبرة يومية

◆ تموز
بلا قمر في السماء
ولا ظل للسماء على الأرض
المدينة القائظة لا تدهش الليل،
وعلى درجات البيت جلس المرضى بالدعاء
يندبون حظهم
كانت أصوات الحرب تجيء من الشاشة
كشجار بعيد. والبيوت تموت ببساطة تشبه
انقطاع الكهرباء.
أما أبنائي الذين لا أستطيع إنجابهم، فقايضوا
حيواتهم بدماء نزفت طويلا من رحمي
المهجور كبيت الأرواح.
كل يخوض حربه
والقطة التي ماتت في العاصفة، هي نفسها
التي تقف مبتلة تحت شتاء تموز، وتموء كقلب
مفطور.
ليسقط المطر الأعمى، ولتكن ريح تشلع الروح
وتلقي بها أسفل السافلين.

لست بريئة من دم يوسف، مثلما لم يكن يوسف
بريئاً من دمع يعقوب.
لكني ما زلت أنتظر قميصي الممزق، يذكر
الذئاب بي، ويرد لجسدي رائحة ما.
فمن أين بدأت قصة القدر تلك؟ هل كانت
مزاحاً ثقيلاً انقلب إلى أمر؟
وكم من موت يلزم لتستعيد الدعابة سماجتها؟
ويضحك الجميع، ويعودون من خلف السواتر
الترابية؟
الطفولة ماتت،
وفي المقبرة أحبتي الأعداء،
من تركوني أترهل في الحداد، وأتلهى بشم
ثيابهم الأخيرة.
وفي القَطْرة، مات الذي لم يخلق وردة واحدة
تليق بحزني.
ياه! للوصايا المفجعة
ياه! ليدين لا تصلحان للتذكر
ياه! لنسيانات انفضت من حولي
أكلنا غولك يارب وأنت تنظر بلا رحمة

أقف مثل جدة تحت شجرة العائلة، وأربط
طرف قلبي بحجر
أنا أزرق
أشد زرقة من عيني السوداوين
ومن عاطفة لم آخذها على محمل الجد
وأشد وحشة من عمّان: الرسم الصبياني
للمنحدرات، والجلافة، والوقار المستساغ
والمذرور كالرمل في العينين.
أماه
تعلمين أنني أزرع النباتات في أصص الآن، وأن
الحديقة التي ربيتها صارت كراجاً لساكني بيتنا
الجدد.
أماه
لا أذكرك أبداً؟ فلم يعد لك عينان ترقبان طيشي

أماه
انا لا أذكر النساء وهن يتهافتن، ويحاولن رفع
جسدك عن التراب بلا فائدة، يدعين التجلد،
ويسألن الشيخ صبري عن حكم اصطحاب
الطفلة إلى المقابر.
لكن ذلك كله لم يغير شيئاً.
فالصغيرة الملوثة بالغبار تمسك شال والدتها،
وتمتثل لأوامرها، وتساهم في النبش.
أعرف أن شقيقي في الداخل،
على بعد أمتار من ذراعي أمي التي تحولت إلى
ندبة في وجه الله البشع.
أتخيلها الآن كانت تريد تمزيق صدره بأظافرها
لتستعيد ابنها البكر. جندي المشاة الذي لم
يمت في معركة، لكنه تشعلق في سماء طرية
فانهال على صدره الاسمنت.
أتذكر رائحة الشمس،
والعيد العالق بزائري «سحاب»،
والحلم المشقوق إلى نصفين،
أتذكر الإسفلت الحامي وكعك الصدقات
والدعاء بالرحمة،
وأتذكرهم ينسلون تباعاً من مدفنهم ويسيرون
بلا قلب في قلبي.

ليس عليك حرج
لم تكن في الجوار حين اجتاح الرصاص البوابة
الجنوبية
أنت يا أبي
كثيراً ما كنت تشبهني
لك نفس عيني
ولما أموت سأجدك وقد تعذبت في جحيم
الحمقى مثلي

نوال
أمد يدي نحو الوجه المرهون بصمتك
المجبول على بشاعتك
كم أنت دميمة، حين تنادين على الوهم العابس
الذي أعدمته البندقية
إليك بالحقيقة: الرصاصة الطائشة التي أطلقتها
في الماضي، لم تكن طائشة.
والأحبة الذين مزقتهم رعونتك، لن يكبروا بعد
أنت ببساطة، ستهرمين وحدك
وهم سيقضمونك كفئران من الداخل.

هاااااي
يا شجرة الكينا العالية
أخفضي أغصانك قليلاً علني أمسك الماضي
لنلعب قليلاً، و نلبس أحذية العمات العالية،
ونحل ضفائرنا فتؤنبنا أمي
ليتني حجر في ظلك الصموت
ليتني جذعك
وليتها طفلة ما زالت
تبكي، إذ ينهرها الناس، على خشبي وتقشر
لحائي. ■

بعد المطر بقليل

◆ الذي ضل طريقه بين الأشجار الجافة جداً
في المنحدر
ليس نفسه،
من أمسكته العجائز في حقول مبطنة بالأشباح
والنمل،
وقرقعة علب معدنية معلقة في فراغ بين الثمرة
وأختها.
ليس نفسه،
الميت الذي وجدته مختبئاً بين الحشائش
الضارة،
وقد دخل عامه الثاني وما زال يحتفظ بخاتم
حديدي وثلاثة أرغفة يابسة.
– شهدت كل شيء، وأنا جالسة فوق الخزّان
كعادتي، أقابل الليل بعد أن تنام عائلتي متدلية
من سقف الحلم إلى الخارج.

العسكر يطوقون الموت المهجور، وقد جمعوا
«الفشك» وقطع التنك وبقايا أقمشة طيرتها
الريح من المزابل إلى هنا أمام عيني.

مياه البلدية تتدفق إلى الخزان، فأحس بنمنمة
لذيذة في قدميّ الملمومتين بذراعيّ. أرصد
صوت الماء والعتمة، ثم أوقظ أمي لتمد البربيج،
وتسقي أشجارها المدللة، ونباتاتها النامية في
علب حليبنا وتنكات الزيت المستهلكة في العام
الماضي، هذه الجلبة المفاجئة تربك شقيقي
الذي كان يمارس العادة السرية علي ما يبدو،
فيتقلب بعنف، ويتأفف بلوعة.

لكنه ليس نفسه،
الحزين الذي وصل حين كان الإسفلت طازجاً،
على الشارع المستحدث بين البيوت المصنفة
من الفئة (ب) الأمر الذي يعني أن نجتث بعض
الزيزفونات لنمد أمتارا من الباطون، ونبتاع
باباً مستطيلاً من الألمنيوم انقطع بنصر شقيقي
برتاجه الحاد. لم تكن فكرة الكراج سيئة جداً،
فقد تسني لنا أن نرسم مربعات «الحجلة»
باستقامة أكثر
ما زال حذاؤه في السقيفة ملطخاً بالقطران
بعد كل هذه السنوات، ساخناً تفوح منه رائحة
الغياب، والشمس الحامية لظهيرة آبية من
الثمانينات، حين درجت موضة الكتافيات
العريضة، فتبدو خالتي القادمة من بعيد فزاعة
ترتدي جاكيتاً رمادياً، منقوشاً بكمية مدهشة
من أزهار معملقة، لم يخلق الله في حجمها قط.

ليس نفسه،
حائراً صادفته في طريق مجنحة بالسراخس
خلف البناء، حيث عاش أبي في شبابه.
قال إنه يختنق فعلّمته كيف يبكي،
بكاء عودتني عليه نساء وحيدات تربيت في
أحضانهنّ، أمي، أخواتي، عماتي، خالاتي، ثلة
من الأرامل والمطلقات والعوانس والدميمات.
كن بائسات بحق، لا يشغلهن سوى تأخر
الطمث وبضع نكات إباحية يكررنها علي
نحو مبك، بينما تلف أصابعهن ورق الدوالي
باحتراف، يرمين به محكماً إلى قدر أخذت
تصغر عاماً بعد عام، إذ انسحبن من المشهد،
واحدة تلو الأخرى.
لم يبق سواي وشقيقتي، تحاول كل منا أن تبقي
النار هادئة، تحت قدر اليخنة التي تكفي لشخص
واحد على الأكثر.
وليس نفسه،
مرتبك يتبع بحة الأنثى الواقفة أمام تاجر الكلف
والشلحات الموسلين، توتونجيان بائع التتن
في صباه، يقول لها إن الجنس تمباك حياته
الملفوف بالموسلين الأسود.
لا يخفي استياءه من هذا الحديث العاري بين
الأرمني والصبية، المرتبك يبقي دائماً على
الرصيف المحايد بجوار الفتاة، وعندما تستدير
نحوه يتذرع بالنظر إلى ملصقات سينما رغدان
الإباحية.

لا يعقل أن يكون نفسه،
من يصغرني بعامين، وله أخت غير شقيقة
عضضتها مرة في مؤخرتها، فعاقبتني أمي بأن
أوثقتني في مخزن العتق ليلة كاملة مصغية
لصراخي يختلط بنباح الكلاب.
أصغرنا وأكثرنا صمتاً، عندما التقط لنا السائح
صورة تذكارية، إذ اصطحبناه إلى المدرج
الروماني، جلس مقرفصاً، مرخياً يده على ركبته
كإشارب أنثوي متهدل. فاقتربت منه وقاسمته
سيجارة ميركوري كان يدخنها باستهتار.

لكنه ليس نفسه،
ينال الذي اعتصرناه بيننا،
- وقت اختبأنا، فتيات خمس، وكنت أكثرهن
بشاعة، في زقاق بين العطّار والفرن القديم،
وقد ابتلت ملابسنا بالكامل فالتصقت التنانير
بأجسادنا اليافعة، وتبادلنا نظرات ساكتة، ثم
انخرطنا في ضحك ماطر تحت شتوة أيلول
التي بللت ذيل الصيف، فانتفض هارباً كقط
بريّ —
رغم أنهن تحرشن بكامل أعضائه، لكني
وحدي، حظيت بقبلة من فمه القرمزي
الشركسي. ذلك أن نظرة قديمة ظلت بيننا.
وليس نفسه،
السادن الذي استغفلته أميرة،
— لها شكلي ومزاجي من حدة الطبع وفوبيا
الغيم، والتطير من صدف البحر، لكنها في ذلك
القرن الغابر صعدت المئة ألف درجة ووجدت
نفسها في مكاني بيدين مذعورتين و باغة خالية
تماماً للكلاشن الساخن المفرغ للتو بالخطأ.
السادن كان قد مات معها طويلاً، صاعداً تلك
السلالم خلفها، أمسك اليدين الهستيريتين
ومسح الدماء بكمّه عن وجهها بهدوء.

أبداً، ليس نفسه،
الوحي الذي جاء بعد المطر بقليل،
— في شتاء ألف وتسعمئة وخمس وتسعين،
اقتادتني أمي لتكويني عند الحجاب — قالت
إن العلل تتكالب على جسدي، وليس بي مرض
سوى أنني أعلم ما لا يعلمون — لم يكن ذا
جناحين،
غير أن عباءته أملتني تماماً،
فغبت عن الخلق في ليلكيّ، صار موحشاً وقاتلاً
كلما سدرت فيه،

كأن روحاً شيطانية تسلمني إلى أخرى.
كأن باطني مختزل في ظاهر الغيب الذي
شاهدته في ما مضي
لكنه ليس نفسه. ■

أطيب التمنيّات من بيروت

مازن كرباج

طاووس الكارثة

خليل صويلح

◆ لستُ عراقياً كي أكون كربلائي الألم. ولستُ فلسطينياً كي أستند إلى جدار المنفى، في انتظار الوطن المؤجل. كما أنني لست لبنانياً كي أعيش زلزال الحروب الخاطفة. ولست أمازيغياً كي أعيش قلق الهوية. في المقابل، لدي خصوصية اختبار الكوارث بالتقسيط المريح. كوارث صغيرة على شكل برشامات، تحصل عليها بسهولة من أي صيدلية وطنية. حبة في الصباح وأخرى قبل النوم.

كنت أنهيت روايتي الأخيرة «دع عنك لومي» باقتباس من الشاعر الفرنسي غيلفيك: «أكتب إليك من بلاد مظلمة من دون أن يكون الجو ليلاً». إنها جملة سحرية حقاً في وصف ما لا يوصف، جملة تختزل حياة لا تشرق فيها الشمس، حتى في النهار. حياة من دون سلالم، أو بسلالم سرّية، تقودك الى متاهات لا نهائية، فتغوص في مستودع من الأكاذيب والغبار.

ليست الكارثة إذاً أن تقف وسط الخراب المعلن، وتتحصن بمعجم مفردات الزلزال، ثم تذهب إلى شؤونك اليومية. أنت تعيش كارثة غير مرئية يصعب شرحها للمبتدئين. لنقل إنها كارثة أسطورية، أو خرافة تتكرر بأشكال مختلفة، حرباء وسلحفاة ودجاجة تبيض خوفاً. هكذا أنا، وهكذا أستيقظ من رقادي، كل يوم أتفقد بيضة خوفي بحذر، وأنظر إليها بإعجاب. ها هي تكسرُ جدارها الرقيق وتستكشف «عنف العالم»، باقتباس طفيف من جان بودريار. لأقل إنني ديك الخوف، ولكن لمَ لا أكون طاووس الكارثة؟ أليس ريشي ملوّناً بما يكفي، كي أكون إمبراطور الكوارث؟ ففي بلاد تخترع أمجادها من غبار المعاجم، وتصنع أناشيدها من الهباء، يستحق طاووس مثلي أن يُتوج ملكاً للخراب.

كان ادغار موران قد قال مرة «إنه كوكب مختل حيث لا شيء يمكنه أن يحدث». هكذا أستيقظ كل صباح، أتلمسُ أطرافي ولون الريش في جناحيّ، مزهواً بالفزع والكوابيس. وكنت كلما حاولت التحليق عالياً، أرتطم بالأرض الضيّقة والنوافذ المغلقة والأرصفة التي تقود إلى الفجيعة. أقول لنفسي متهكماً: ما هذه البلاغة يا خليل؟ لماذا توقظ الفراهيدي من قبره، فالأمر لا يحتاج إلى إيقاع. عد إلى مواقعك واستكشف الفخاخ بنفسك، ببلاغة أقل وعسف لغوي مشابه للعسف الوطني المجيد. فنحن يا رجل في عصر الديجيتال، وبات سهلاً للغاية، أن تلتقط الصورة على عجل من دون زخرفة أو استعارة أو حتى مجاز. قل مثلاً: ما هذا الخراء؟ وانهِ الإرسال.

أعاود البث مجدداً. مرة من شارع فلسطين، ومرة من جادة ابن حزم، ثم أعبر بضجر ساحة يوسف العظمة واسترخي في حديقة الجاحظ. يا لأجدادي العظام أتفقد بريدي الالكتروني، وأتوقف عند رسالة مشفّرة بعنوان دائم «كيفك أنت». كنت أسفح السطور بعبارات حب ساخنة متهتكة، بذيئة، ونهر عواطف شرقية أصيلة. كان الشغف في أوْجه. فكرت مراراًبعدما جفَّ قاموسي، أن أكتب كلمة واحدة لها في وصف أحوالي: «زفت»! ستفهمها على أنني أتهرّب من مواجهة أشواقها. لكنني حقيقة، ليس لدي ما أقوله سوى هذه الكلمة «زفت». حتى«ماشي الحال» التي يستعملها الآخرون ببساطة، أشعر أنها غير ملائمة في وصف الحال. إلى هذه الدرجة وصل بك الحال يا خليل؟ أين نشوتك القديمة، ألم تحب أغاني أم كلثوم وتهديها مقاطع منها؟ فأنت على كل حال، لم تحب أغاني فريد الأطرش يوماً، لكنك الآن تشبه فريد الأطرش بكل مزاياه التعبوية (اختر أغنية «فوق غصنك يا لامونة، لكتب بدمع العيون» على سبيل المثال).

إلى هذا الدرك قادك نص الكارثة؟ ألأنك لم تختبره يوماً بمثل هذا الجلاء والوضوح؟ كنت تخترع أرشيفاً غامضاً وملتبساً للألم، كي لا تواجه مراياك وتهمل أدراجاً وملفات، كأنها غير موجودة في الأصل. وتذهب إلى الشوارع الخلفية بمرح موقت ومستعار، مؤجلاً المحاكمة إلى وقت آخر. وها أنت تفرش خرائط الملهاة بكل عسلها وحليبها الذي تعلن عنه الصحف في عناوينها الرئيسية.

ماذا تجد أيها الطوبوغرافي الخائف؟ بلاد تتحول فجأة إلى«مول» لتسويق العزلة والأقنعة الوطنية، وترميم الشعارات والأوسمة بتنزيلات مغرية.

حفريات تخترع حضارة آفلة وأثنيات، ومخطوطات مشبوهة في الجنس والغواية كتبها فقهاء، وفتاوى معاصرة في معنى المؤنث والمذكّر، وجمع التكسير. تتوه بين المصاعد الزجاجية في طبقات «المول»، وتفكر في المعرض المجاني للمؤخرات والرمان وزهر المشمش الشامي. هناك إذاً وجه آخر للكارثة: كارثة الجمال والفتنة.

–أليس الجمال قتلاً ورديا؟ يقولها صاحبي بهيئة فيلسوف، قبل أن ينطوي إلى مستودع أحزانه في الضواحي. يخبرني بحيادية أنه حطّم عوده القديم، ومزّق مخطوط ديوانه المؤجل، وجرّب الحشيش ونكهة الصراخ وحيداً في آخر الليل. وهو أيضاً لديه وصفة دقيقة في كيفية أن تصير ثوراً، وتطيح أبقار الجيران بفطائر الحكمة وقليل من توابل بوذا وأبي نواس وهيرمان هسه. قهوتنا مرّة، يضيف «بوذا الضواحي» في استعارة مكشوفة من قاموس الهباء، ولا يريد أن يصدّق أنه في الحضيض أو أنه يرغب بتفكيك هذا الحضيض، بشيفرات جديدة، كأن يقول «المرحاض العمومي» في تفسير المسألة. من جهتي، أضع «عواء» صديقي المجروح في خانة الكارثة أيضاً. فالملف، على أية حال، سيظل مفتوحاً، طالما أنه عصي على التجنيس بالمقارنة مع كوارث الآخرين الصريحة والعمومية.

كافكا لا يزال يتجوّل هنا، مطمئناً إلى غزارة الملفات الغامضة في الأرشيف. لكنه سيختفي فجأة ليتحوّل هو الآخر إلى رقم سرّي في ملف ما، ملف الكتروني على الأرجح، بعدما دخلت الخدمة البلاد منذ فترة وجيزة.

إذاً ليس للكارثة «نيون» إعلاني كي ندخل الاستعراض من أوسع أبوابه، لكن مقاعدنا محجوزة بالتأكيد. ليس في الصف الأول تماماً، لكنها مخملية بحق. وهي تحقق فرجة شاسعة، حتى أن بإمكاننا أن نشاهد الإمبراطور عارياً، بمطّ أعناقنا إلى الأمام قليلاً فحسب. المشهد يستحق العناية حقاً بما فيه خدمة التصوير الفوري، فنحن أيضاً نمتلك صوراً تذكارية تتيح لمن يرغب أن ينتسب ببساطة إلى نادي الكوارث.

ولو أننا لم نفقد حناجرنا منذ زمن طويل، لصرخنا بملء أصواتنا «تعال إلى حيث النكهة!». ■

موطن

عبر مجموعة الصور التي التقطها في الضاحية الجنوبيّة لبيروت، خلال شهري أيلول (سبتمبر) وتشرين الأوّل (أكتوبر) ٢٠٠٦، أراد جيلبير الحاج أن يعيد الحرب إلى طبيعتها الأولى، بصفتها «حقيقة ملموسة، خللاً واستثناءً». ابتعد بأعماله الفوتوغرافيّة عن الطابع الافتراضي الذي بات يلازم كل الحروب، إذ «نشاهدها على التلفزيون بصفتها استعراضاً ترفيهيّاً». عرضت هذه الصور في جامعة البلمند، ومتحف سرسق في لبنان، و Forum For Urban Design في نيويورك، و ICA Institute of Contemporary Art في المجر.

حارة حريك – الأمانة العامة

حارة حريك – بير العبد

جيلبير الحاج

حارة حريك – بير العبد

حارة حريك – شارع راغب حرب

مرز باو روت/الوجه ب

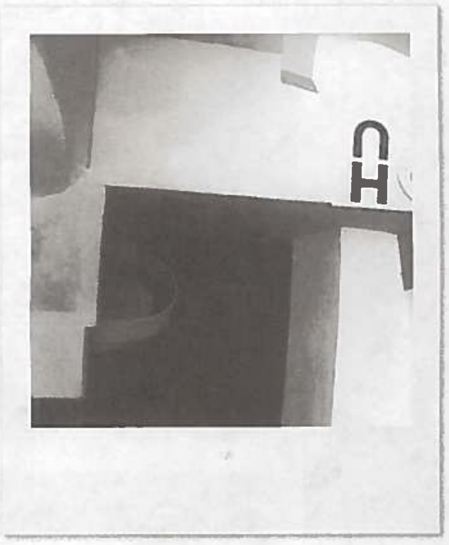

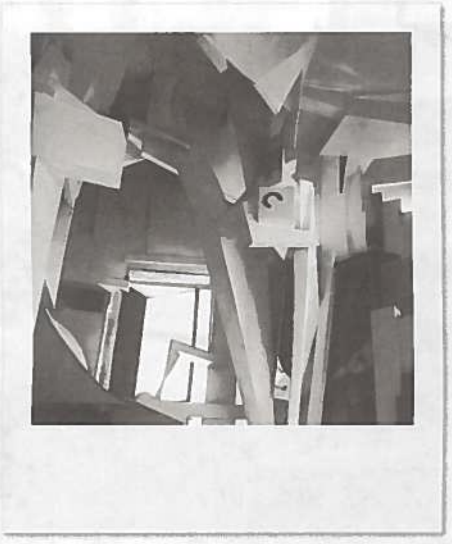

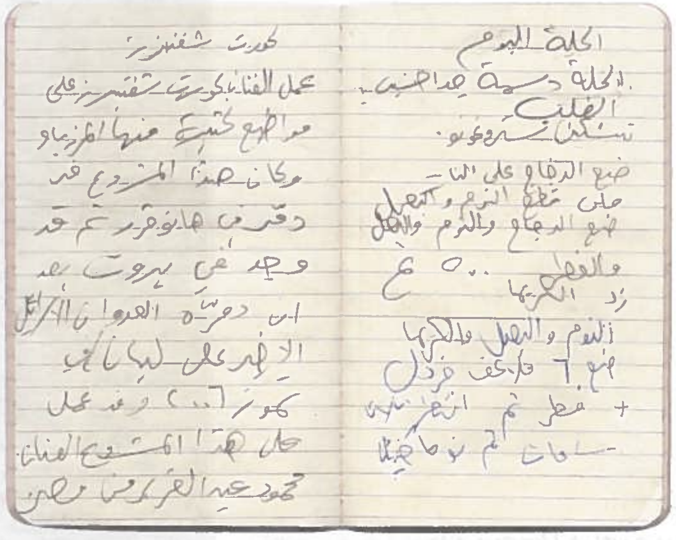

لم أقدر على المغادرة دون أن أحتفظ بشيء من هذا المكان غير الصور، أو بالأحرى لم أقدر على المغادرة دون أن أسرق شيئاً. سرقت هذا الدفتر الذي كان يحتوي على وصفة طبخ وبعض الملاحظات التي لم أستطع قراءتها بسبب رداءة الخط، هنا تذكرت الفنان كورت شفيترز الذي كان يسرق أغراضاً من أمكنة مختلفة أو من أصدقائه ويضعها في أعماله كما فعل في عمله مرزباو الذي دُمّر في الحرب العالمية الثانية.

ايريس تنكنك ورائد ياسين

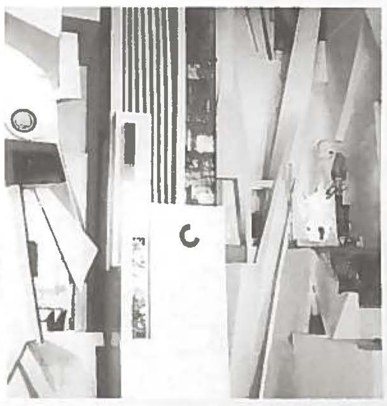

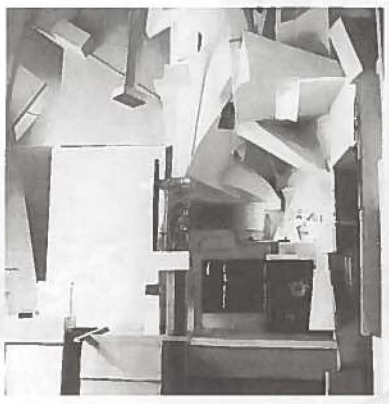

بعثت بهذا الكاسيت إلى إيريس بالبريد المضمون، سجلّت عليه رسالة صوتية قصيرة و تركت الباقي كما هو. الكاسيت هو لفنان البوب اللبناني طوني ضو بعنوان اللص الظريف. وصلها الكاسيت متأخراً، وضعته في آلة التسجيل لم يعمل جيداً، أعادته الى بدايته ثم شغّلته ؛ أصدر الكاسيت الأصوات التالية : بوم بوم ترررررررررررررررررر تا تتا تتتا ترررررزززز ترت، أدركت عندها أن آلة التسجيل الحمراء سوني قد «علكت» الشريط، و هكذا حصلنا على الترجمة الجديدة لقصيدة كورت شفيترز «اورسوناته».

زيارة إلى مارون الراس

داليا خميسي

في الجنّة

المقبرة البحرية

عباس بيضون

كلما كنت أمر بهذه الحديقة التي انشأوها فوق مقبرة جماعية في صيدا، لم أكن أجد في رأسي أي عبارة توازي مقبرة جماعية. هذه أول مقبرة جماعية أعرفها، ولا أجد كلاماً بقدرها. كنت أكتفي بأن أتأمل الربيع عليها وأشعر بأنه ليس ربيعاً عادياً ذلك الذي ينمو فوق مقبرة جماعية. لكني لا أجد السبب. لم يخطر لي بالطبع ما خطر للمعري من أن أديم الأرض من هذه الأجساد. لا لأن المعري استقل بهذه الفكرة فقط، ولكن لأني أفكر أن القبور هي كل شيء إلا أن تكون صناديق للأجساد التي حوتها. فإن أبشع شيء هو ان نفكر بالربيع على أنه خلاصة اللحم الذي خزن في الداخل.

حينما نثرت ماري كلود رماد صديقي رينهارت فوق الماء لم أشعر انه ضاع. لم أفكر بأن الجسد يعود يحوي حقيقة ما بعد انتهائه، لا. كنت أحب ان أنظر الى المقبرة الجماعية. أراها حديقة وأراها ربيعاً وأروح أفكر ان لا فرق بين الربيع وبين المفقودين في هذا التراب. أفكر ان العشب وحده يفكر الآن محل هؤلاء، وأنه تقريباً يحمل أسماءهم ويعيد نثرها في الهواء، قلما كنت أجد أحداً هناك. فالمقبرة الجماعية لا تتيح للأهل ان يهدوا لفقيدهم فاتحة او زهرة او ماءً. لا بد ان عشرات الأرواح العطشى ستتخطفها قبل ان تصل. في هذا المأوى الجماعي ينتهي الفاقدون بأن يبحثوا عن مفقوديهم في مكان آخر، او يستدعونهم هم الى مكان آخر.

هكذا تبدو المقبرة الجماعية موئلاً افضل لغير الفاقدين. للذين يبحثون عن ذكرى عامة. للذين يأتون ليقولوا هذه معركة صيدا، او هذه معركة عين الحلوة، ويروحون يستعيدون بعيون مغمضة صوراً لم يروها لأشخاص لم يغادروا، بعد أن ولّى الآخرون. لمقاتلين اصرّوا على البقاء بعد ان لم يبق أحد. ثمة شيء لا يزال معلقاً هنا. هو هذا البقاء البسيط الذي ليس جواباً على شيء. ربما ليس تضحية ايضاً. قد يكون بلا سؤال. أبقى حيث أنا، أقاتل لأني أحمل بندقية. مع ذلك فإننا نحب وهم ان نفكر أنهم ظلوا في أماكنهم لأن لديهم حيال هذه الأماكن شيئاً ليس لدى غيرهم. لنقل إنهم لم يحبوها فارغة. لنقل إنهم خافوا من أن لا يرجعوا. لنقل إنهم ساووا بينهم وبينها. لنقل إنهم لم يصدقوا أن الناس يموتون لسبب صغير كهذا، أن يبقوا تحت سقفهم، الموت اكبر من ذلك. لا ندري بالطبع لكننا نفكر انهم بعد ذلك لم يعودوا يروا أمكنة. ما عادوا يحسون بغير ذلك الدوي الذي يرعد فوق سقوفهم والتي قد تهوي عليهم، سيتفاجأون هم بأنهم

لارا بلدي

Justice for the Mother قياسات متنوّعة ومواد مختلفة.
عرض العمل في بينالي الشارقة (٢٠٠٧)

بقوا. سينتبهون الى ان هذا، بحد ذاته، قد يكون سؤالاً. سيعرفون الآن أنهم سيتساوون بسقوفهم وأن العالم لن يتوقف لحظة ليسألهم عن أسمائهم. سيكونون الآن جزءاً من الردم. سيكونون فقط هذه البندقية التي تطاوعهم كثيراً، ربما لن يعرفوا انهم اختاروا ان يكونوا شيئاً تحت القرية المدمرة او الحي المدمر. إنهم اختاروا فقط لحظة الصمت الهائلة بعد الدوي الهائل، لحظة تساوي الإغفال العظيم، تساوي النسيان الكبير.

مهما كنا شعراء لن نستطيع ان نتخيل أنهم يخرجون من تحت الدوي او تحت سطح المقبرة. إننا نتخيلهم اسمالاً. نتخيلهم ذكريات ناقصة او مفقودة، نتخيل ان تحت الأرض، لا بد، دمية او قطعة نقد ممحوة او حزاماً او منديلاً أو أي شيء. نراهم أشياء. تلك المرآة التي أرادوا ان يبقوا معها. تلك الزهرية. تلك الشجرة، تلك اللعبة، نتخيل ان هذا الربيع الذي تحركه الريح فوقهم يروح يتناقل اسماء جديدة لهم. ان هذا الوقت الذي لم يكملوه ولم يتح له ان يستدعيهم يرجع تقريباً، ليس كوقت، بل كدوي اصم. كإنذار لم ينطلق، يرجع كصمت كبير، كعشب خاسر، كنسيان لا يتم. أحب ان أتخيل ان تحت هذا العمق ارواحاً هادئة هربت من عين الله. وليس من حق أحد ان يستدعيها بعد ان نسيها الموت نفسه في هذا القفر الأعمى، ولن يعطيها أحد حتى قبراً.

البارحة، او أول البارحة، او قبل ذلك، لم يستطعوا ان يسلموا الموتى الى المقبرة الجماعية الثانية في صور. لا أدري كيف، امضى هؤلاء هذه الليلة. لقد ارغموا على ان يبقوا تحت هذا الدوي الأصم الذي انتصب لهم فجأة وقتاً إضافياً، إنهم من قرى عديدة ويلتقون هنا في هذه المدينة التي ليس فيها غريب. تلك المدينة التي هي وطني، وأعرف الآن انها ستعطي بسرعة وطناً للذين لم تستطع أن تعطيهم اسماً. مدينتي التي أفكر فيها الآن بعيداً عنها. لقد غدت مأوى لمقبرتين جماعيتين. لا أعرف أين حفرنا، لكن ذلك الربيع الذي يأتي من جهة الموتى لن يكون غريباً ولا سيء الرائحة. ▣

٩ آب / أغسطس ٢٠٠٦

X-Ray

CUT ...

شيء ما لا يعجبه هذا المخرج، ينزل ويقترب مني، يتفحص وجهي وينادي مساعدته فتركض إلينا. يشير الى وجهي فتشهق وتنظر اليه معتذرة ثم تنظر الى وجهي بحزن، فاتحسس وجهي. جرح بالغ يفيض بالعفن يقسم وجهي إلى قسمين. التفت الى المخرج بخوف، فيبتسم ويرش بعض الملح، ويغطي وجهي بورقة توت ونعود للتصوير.

CUT ...

شيء آخر لا يعجبه هذا المخرج، فانظر الى جسدي لعل هناك جرحاً آخر! لكنه يقترب وهو يشير الى «أحدهم» خلفي ليبتعد. أنظر خلفي، «أحدهم بدشداشة» شبه عارٍ يقوم بحركات واشارات غريبة، يتحدث المخرج مع الـ «أحدهم» باحترام أراه لا يتناسب مع حركاته. وأشعر حينها بسائل لزج على مؤخرتي! فالتفت الى المخرج بخوف، فيبتسم ويرش بعض الملح ويغطي مؤخرتي بورقة توت، يبعد الـ «أحدهم» ونعود للتصوير.

CUT ...

عاد المخرج للصياح، وعدت أشعر أنني لا أصلح ممثلاً. لكنه كان ولحسن الحظ يصرخ على جمهرة خلفي. كانت الجمهرة ترتدي الشورتات، وتحمل حقائب سفر ملونة. يطلب منهم المخرج الابتعاد من مجال التصوير، فيجيبه طفل صغير: «نحن ننتظر الطائرة التي ستهبط هنا». فيسأل المخرج: «مهاجرون؟!». فيجيب الطفل: «هاربون». يأخذ المخرج عنوانه ورقم هاتفه، ويخبره انه سيزوره لأنه بصدد اخراج برنامج عن المغتربيين. يودعهم بحرارة ويشعل سيكارة له وللطفل، ويشير لطاقم التصوير فيغطيهم طاقم التصوير بأوراق التوت ونعود للتصوير.

CUT ...

ويركض المخرج الحساس هذه المرة نحو مسلح يمشي باتجاهي. أراهما يتجادلان، والمسلح يشير الى ساعته والمخرج يشير الى طاقم التصوير، والى الشاطئ. والمسلح يهز رأسه رافضاً، ويحاول التقدم في اتجاهي والمخرج يمنعه... ثم توصلا الى اتفاق على ما يبدو، تصافحا وعاد المخرج بينما أشعل المسلح سيكارة ونظر اليّ ثم الى ساعته. سألت المخرج عما حدث فقال «اطمئن، اتفقنا على موعد آخر».

CUT ...

يقترب المخرج مني هذه المرة بحنان زائد: «مش هيك... مش هيك». فأعتذر: «هذه مرتي الأولى». فتمتم بشيء ما وتابع: «عندما تنتهي لا تنظر الى الأرض، بل ارفع رأسك عالياً وارفع يدك هكذا». (ورفع علامة النصر) وعدنا للتصوير.

CUT ...

حاولت أن أتذكر المقطع الأخير فلم أستطع، فارتجلت شيئاً قريباً منه حول الموضوع ذاته. ثم رفعت رأسي، وأشرت بعلامة النصر... فاقترب المصور مني حتى لامست الكاميرا يدي، وحبست أنفاسي حتى لا تهتز يدي أمام الكاميرا.

CUT ...

أنزل المصور الكاميرا وابتعد، أما المخرج فاقترب وقال: «أنزل يدك، يمكنك أن تستريح الآن، برافو... مع أنني كنت افضل أن تلتزم بالنص، لكن لا يهم فلا وقت لديك... أقصد لدينا». وناولني سيكارة، وقال: «اذهب الى الشاطئ الآن لتريح أعصابك». ونظر الى المسلح، غمزه وابتسم له فمشى المسلح، وهو يعبث بسلاحه. سألت المخرج: «والآن ماذا؟!». قال : «انتهى... انتصرتم».

انتصرنا اذاً! وستراني زوجتي أشير بعلامة النصر على الشاشة، وستشعر بالاثارة، فابتسم... أمشي للشاطئ وأنا أغني... «هذه ليلتي»... والمسلح يمشي خلفي.

أصابع: عامر شوملي
تحرير فني: رؤوف بن يحيى
تنسيق: شرين دباح
بالاشتراك مع «زان ستوديو»
بدعم من «مؤسسة المورد الثقافي»
www.xray.ps

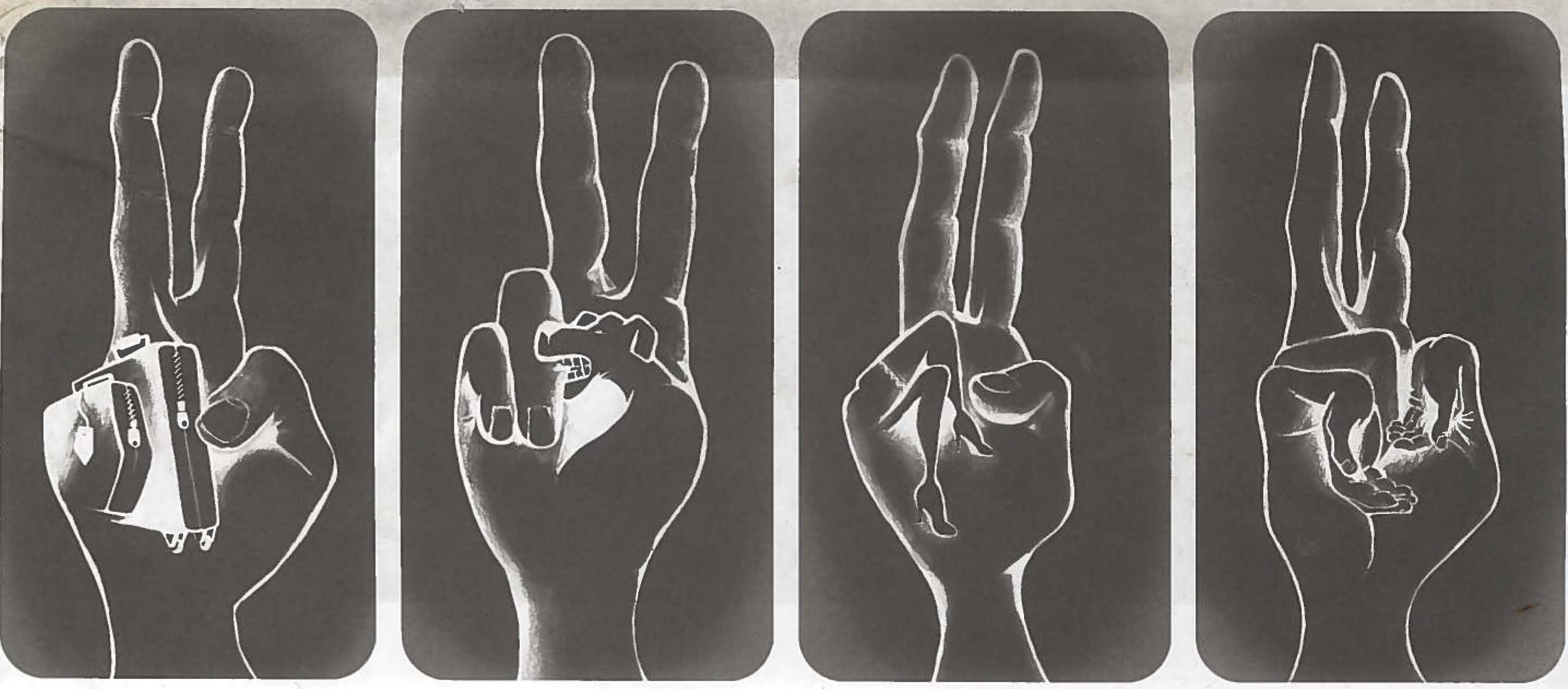

«زوايا» جريدة ثقافيّة تصدر عن «شركة ضفاف للنشر» ش.م.ل.

رئيس التحرير: بيار أبي صعب
الاشراف الفنّي: زينة معاصري

سكريتيرة التحرير: أمل الأندري

هيئة التحرير: إبراهيم توتونجي، أكرم الزعتري، أمل الأندري، بيسان طيّ، جيلبير الحاج، حسين بن حمزة، خليل صويلح، رندا شعث، رشا سلطي، رين محفوظ، زياد عنتر، سفيان حجّاج، سيّد محمود، عادلة العائدي، عثمان تزغارت، عدنيّة شبلي، علا الخالدي، لارا بلدي، مازن كرباج، محمّد خير، موسى برهومة، نجوان درويش، ياسين عدنان، يوسف رخا

التصميم الفنّي والتنفيذ:
Mind the gap
الغلاف: عامر شوملي

توجّه المراسلات إلى ضفاف للنشر
ص. ب. 957 661 – الأشرفيّة – لبنان
بريد إلكتروني: editor@zawaya.info

المدير المسؤول: غسان حجّار
الإشراف الإداري: هانية مروّة
التنسيق والتسويق: زياد حلواني

طباعة: دوتس مطبعة دار الكتب
بيروت – لبنان

تصدر «زوايا» بمساعدة «مؤسّسة فورد» و «مؤسّسة هينريش بَل»

المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهات الداعمة.

HEINRICH BÖLL FOUNDATION
Ford Foundation

زوايا